2020
31.12.2019

قصص قصيرة

زوران جيفكوفيتش

جامع الأحلام الأرجوانية

ترجمة: فاطمة نعيمي

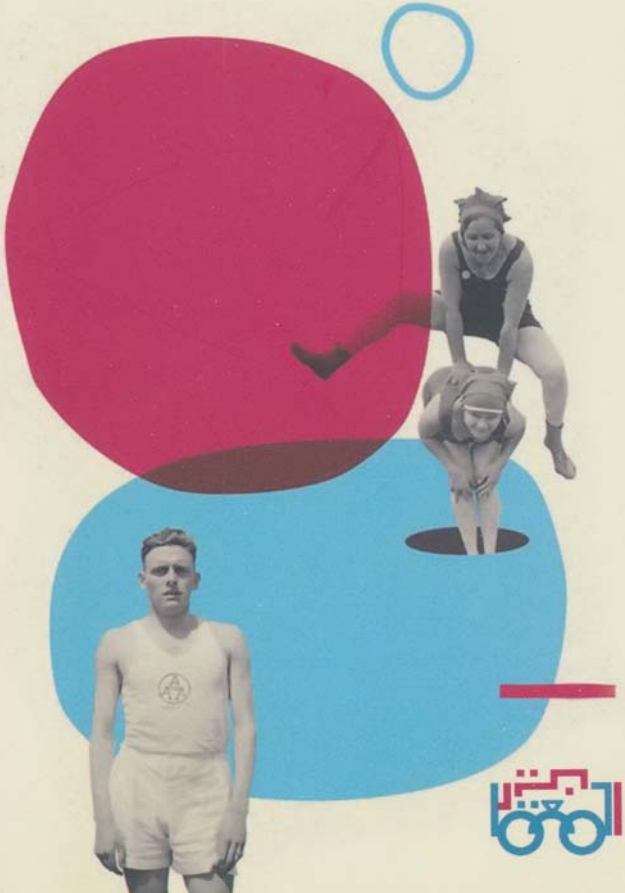

زوران جيفكوفيتش

جامع الأحلام الأرجوانية

ترجمة:

فاطمة نعيمي

جامع الأحلام الأرجوانية

جامع الأحلام الأرجوانية

زوران جيفكوفيتش
ترجمة: فاطمة نعيمي
الطبعة الأولى، 2019

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

All rights reserved، is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book، or part thereof، or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information، whether electronic or mechanical، including photocopying، recording، or storage and retrieval، without written permission from the rights holders

المعقدين للنشر والتوزيع

Almuakadeen for Publishing & Distribution
العراق ـ البصرة ـ شارع الفراهيدي
الهاتف: 0096597779850
Dar.Almuakadeen@gmail.com
Facebook: MUAKADEEN
Instagram: @muakadeenbooks

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 896 - 9

(1)

جامع الأيام

اجتاحتني موجة من اللون الأرجواني حال دخولي محل المعجّنات، يمكنني القول أن كل سطح هناك كان مغموراً بدرجةٍ من هذا اللون: ورق الجدران، الستائر، السجاد، مفارش الطاولات، أغطية الكراسي. كذلك كانت الظلال على المصابيح المضاءة على الطاولات. الضوء الصامت أعطى حتى الهواء نفحة من اللون نفسه.

بعينين نصف مغمضتين حدّقت في المكان، لا يشغل أحد الطاولات الدائرية الست المحاطة كلٌّ. منها بثلاثة كراس، كان طاهي المعجنات منشغلاً بمسح الواجهة الزجاجية بمنديل أرجواني، حتى مئزره كان يحمل درجة من نفس اللون الذي غمر كل شيء في هذا المحل. يبدو سميناً بلحيته وشاربه الكثيفين اللذين يبدوان تعويضاً منصفاً عن صلعه اللامع.

بحرارة رحّب بي: طاب مساؤك! تفضل بالجلوس أينما يعجبك

رافعاً قبّعتي رددت التحية مرفقة بابتسامة تعادل ابتسامته: مساء الخير

ترددتُ بعض الشيء، وتوجهت الى أبعد طاولة عن الباب. علّقت معطفي وتركت قبّعتي على الرف، جلست على الكرسي القريب من

الحائط. مسرعاً هرع الطاهي مبتسماً لطاولتي وهو يترك المنديل على ذراعه ليسألني: ماذا تود أن تتناول؟

شيئاً حلواً، أجبته.

«أنت في المكان المثالي، لدينا تشكيلة فاخرة من الحلويات» قال لي مشيراً الى القائمة المغلّفة باللون الأرجواني والموضوعة على الطاولة أمامي. الصفحات الداخلية كانت بدرجة أفتح من اللون ذاته، بينما الكلمات كانت مكتوبة باللون البرتقالي، لم يسهب الطاهي في شرح تشكيلته من الحلويات والمعجنات التي ملأت ثماني صفحات كاملة!

أختصر نظري الصفحات لنهاية القائمة، كلما توغلت فيها كلما زاد تعقيدها. على سبيل المثال، ماذا قد يعنيه اسم «مانعة الصواعق»، «الكَمان الكَسول» أو «الطنانة الشاردة الذهن»؟.

«زنبقة الماء المتيّمة«جعلتني ابتسم في سري. الأطباق في الصفحة الخامسة كانت تحمل أسماء تشعرك أنها تنوي إبعاد وصدّ محبّي الحلويات! أعني حقاً، من سيطلب طبقاً يحمل اسم «المبشَرة النتنة»، «المهرّج الآسن«أو «الجيفة المبتهجة» دون أن يكون على علم مسبق بما سيتناوله؟

أغلقت القائمة وأعدتها لمكانها على الطاولة.

«من الصعب حقيقة أن أقرر مع قائمة تحمل أسماء كهذه» قلت له، «ربما يمكنك اقتراح طبق معين»؟ «أريد أن أتذوق طبقاً مميزاً»

اختفت فجأة تلك الابتسامة التي بقيت وكأنها أُلصقت بالغراء من وجه الطاهي. لم أستطع تفسير تلك النظرة. بدت ملامحه متسائلة وموبّخة في نفس الوقت.

«مميز ها»؟!كرّر بنبرة فقدت الدفء هذه المرة.

«نعم، أود ان أجرب شيئاً مختلفاً، أحب تجربة الأمور الجديدة».

«لدينا طبق مميز، لكنه ليس على القائمة»

«حقاً»؟

«نعم. هل جربت يوما طبق القرد المحشي»؟

لو لم أكن قد قرأت القائمة للتو لكنتُ دون شك مصدوماً من الاسم.

«أخشى أنني لم أسمع حتى بإسم كهذا» .

«هل تود تجربته»؟

«هل هو نوع من الكعك»؟سألته

«نعم، نوع من الكعك بنكهة فريدة، وصفتها سرية، ولا يمكنك تذوقه بمكان آخر»

«لماذا إذاً ليس مدرجاً في القائمة»؟

«بسبب ثمنه»

كنت أنا هذه المرة من يقدح بنظرة توبيخ: «آها. هل هو غالٍ لهذه الدرجة»؟

«يعتمد على نظرتك للأمر، للبعض يبدو كذلك، وللبعض الآخر لا»

«أخبرني إذا بالسعر، وسأقرر إن كان يناسبني أم لا»

تنهّد الطاهي وأخذ يتلفّت حوله وكأنه يتأكد من عدم وجود متنصّت على حديثنا

«هل تسمح»؟ قال وهو يشير الى المقعد المقابل لي

«طبعاً، تفضل بالجلوس» بادرته وأنا أنهض قليلاً من مقعدي.

جلس الرجل قبالتي وهو يشبك ذراعيه أمامه على الطاولة، متأملاً إياهما لثوان، ثم رفع عينيه إليّ قائلاً بصوت أكثر هدوءاً:

«هذا الطبق ليس على القائمة لأن ثمنه لا يُدفع بالنقود»

«بم إذاً»؟

«بالأيام»

«بماذا؟!»! سألته مع اني سمعته جيداً

«أيام من الماضي، لمن يطلب»

تلت عبارته هذه فترة صمت.

قلت له «حسناً أفهمك، لكن كيف يمكن لأحد ان يدفع ثمناً بأيام من ماضيه»؟

«هذا ممكن، اليوم الذي تختاره كثمن يختفي من ذاكرتك، ويصبح كأنه يوم لم تعشه. يصبح جزء من مجموعتي»

«تجمع أياماً» ؟

«نعم. لا تدع الأمر يصدمك، هناك أمور أشد غرابة من الأيام في حياة الناس يتم جمعها»

«لست متفاجئاً، أنا فقط لا أستوعب الأمر»

«مجموعتي كبيرة بالفعل، انها هنا» قال وهو يلتفت للوراء ويشير الى ما فوق منضدة العرض.

أجهدت عينيّ لأنظر إلام يشير، لو لم تكن الإضاءة بهذا الخفوت لكنت لاحظت الأربعة صفوف من القناني الصغيرة الموضوعة فوق بعضها والتي تبدو كما إفريزاً طويلاً ممتد على طول المنضدة. كان هناك الكثير منها، بل حتماً ليست أقل من المئات: هناك الأرجوانية، الكروية الشكل، والسدادات الزجاجية تجعلها تبدو كقناني العطور الفاخرة.

«وهنا تحتفظ بالأيام»؟

«نعم، يجب حفظها مغلقة بإحكام، في مكان مظلم وجاف. الأيام تتبخر بسهولة إذا تعرّضتْ للشمس، الرطوبة أيضاً مُضرّة، يجب أن أُبقي درجة حرارة المحل مناسبة طوال أيام السنة» .

«من كان يتوقع هذا»!

«مع الأسف بالرغم من ذلك، ولأنني لم اكن أملك خبرة كافية عن كيفية جمعها في البداية ولم يكن هناك من يعلّمني، خسرت الكثير من الأيام. ذلك أنني أضطررت أن أتعلم بنفسي كيفية المحافظة عليها» .

«هل تقوم بجمع أيام معينة»؟

«لا. لستُ انتقائياً. للزبون حرية اختيار اليوم الذي يمنحني إياه. البعض يجدها فرصة جيدة للتخلص من يوم سيء من ماضيه. ويتناول بالمقابل حلوى استثنائية. لدى الجميع أيام سيئة في حياته يود وبسرور أن ينساها. دون شك لديك أنت أيضاً شيئاً منها».

«لديّ. نعم» أجبت بعد شيء من التفكير.

«وهل تود التنازل عن واحدة منها مقابل حلوى القرد المحشي»؟

أجبته بعد بضع لحظات: «أود ذلك» .

عادت الابتسامة لوجهه: «حسناً إذاً، سأحضرها حالاً». قالها وهو ينهض ويتوجه الى منضدة العرض، انحنى وهو في الخلف وتوارى عن نظري. عندما ظهر مجدداً كان يحمل علبة أرجوانية بيدٍ واحدة وهو يعود لطاولتي.

وضع صحنا صغيراً ارجواني اللون أمامي وأرفقه بسكّين شوكة، ومنديل.

بدت الكعكة الأسطوانية أيضا بذات اللون، أو قد تكون بدتْ كذلك بسبب الضوء.

جلس قبالتي الطاهي وهو يضع العلبة على طرف الطاولة ويخرج منها قنينة صغيرة فارغة، كان يواجه صعوبة في رفع السدّادة الزجاجية منها.

«فكِّر في اليوم الذي ستدفع ثمنه قبل أن تتناول أول قطعة من الحلوى. في اللحظة التي ستضع اول لقمة في فمك سيتلاشى هذا اليوم. إذا لم تفكّر بيوم محدّد، سيتم محو يوم بشكل عشوائي، وقد يكون يوماً لا تود أن يمحى من ذاكرتك».

أومأت برأسي قليلاً، والتقطتُ السكين والشوكة. أخذت قطعة صغيرة من الكعك، كان الجزء الداخلي من الكعكة بدرجة مختلفة من الأرجواني، رفعتها الى فمي ببطء.

بسرعة سدَّ الطاهي القنينة بينما أُخرجُ الشوكة من فمي. رفعها جهة الضوء، شيئاً ما رآه بداخلها جعل ابتسامته تتّسع.

«إذاً»؟ سألني وأنا أبتلع لقمتي الأولى

تناولتُ قطعة اخرى، أكبر من التي سبقتها

«يا إلهي»! تمتمتُ بفمي الممتلئ.

بعد قليل لم يكن هناك حتى فتات في الصحن، التقطت المنديل ومسحت به فمي.

«علمتُ أنه سيروق لك. الى الآن لم يتناوله أحد إلا والتذ به.

«لم أعلم أساساً بوجود طبق بهذه اللذّة، هل يمكنني تناول طبق آخر من القرد المحشي»؟

«لا».

نظرتُ إليه بحِيرة: «لماذا»؟

«هذا لصالحك، صحيح أنني كجامع لهذه الأيام متعطّش لزيادة مجموعتي، لكني لستُ بعديم شرف»

«لا أفهمك هنا»

«لكي تفهم، يجب أن تعرف اكثر عن القرد المحشي. هذا ليس بكعك عاديّ»

«أتفق معك تماماً» قلتُ وانا العق شفاهي.

«لم أقصد هذا. إنه يولّد الإدمان عليه».

«إدمان»؟

«نعم، كلما تناولت منه اكثر، زادت رغبتك فيه»

«إيجاد هذا المحل هو بمثابة حلم لكل شخص مدمن على الحلويات، إن كنتَ تظن أني سأفرط في الأمر، لا تقلق مطلقاً، فأنا طوال حياتي كنت من محبي الحلويات وها انا كما ترى، برشاقة كمان»!

«القرد المحشي لن يضرّ صحّتك»

«إذاً ما هو المُضرّ»؟

قبل ان يجيبني، قام الطاهي بوضع القارورة في جيب مئزره : «ستتبقى لديك أيام أقل فأقل من ماضيك»

«وما المشكلة؟، وفيم قد احتاج تلك الأيام؟ على الأقل بهذه الطريقة يتم الاستفادة منها بشكل ما، سأستمتع بحقّ وأنا آكل أيامي الماضية» قلتُ وانا أقهقه

كان جلياً ان كلامي لم يرق للطاهي: «لا أعتقد أنه خيار حكيم»

«لا تعتقد»؟

«ليست فكرة جيدة ان تكون دون ماض».

«لماذا»؟

بقي الرجل ينظر لي بصمت.

«أخبرتك أنني لم أملك أي خبرة في البداية. اعتقدت، كما أنت الآن، أنه ليس هناك ما قد يمكنك أن تخسره وأنت تدفع من ماضيك. تركت لزبائني قرار التهام القرد المحشي الى حد التخمة، سعيداً بمكسبي من الأيام وتوسعة مجموعتي الأثيرة، إلى أن بدأوا بالاختفاء».

«الاختفاء»؟!

«نعم. تدريجياً. كل قطعة من الكعك زادت من المساحة الفارغة

بداخلهم. اصبحوا غير مرئيين في تلك البقعة. كانت تلك المساحات ضئيلة في البداية. لم تكن لتلاحظها. أصبحت لديك أنت واحدة أيضاً في مكان ما الآن».

«أين»؟ قلتها وأنا أنظر ليديّ وأتحسس وجهي .

«لا أعرف. لا فائدة من البحث. فأنت لن تجدها تحت عدسة مكبِّرة. ولهذا قلت لك أن لا ضرر في تناول القرد المحشي. هي لا تترك أثراً بكل حال. لكن بعد تناول بضع قطع تتّسع المساحة الفارغة وتبدو أكثر وضوحاً وتتمدد كل يوم بينما يتم استهلاك الأيام الماضية. الزبائن الأوائل أخفوا هذا الأمر عني خشية أن احرمهم من الكعك. ببساطة لم يستطيعوا الحياة دونه».

«إذاً، ماذا حدث»؟

«في النهاية عرفت بالأمر، اتّسع الفراغ لدرجة لا يمكن عدم ملاحظته»

«هل توقفت عن بيعهم الكعك»؟

«لا. هذا مستحيل، لأنهم ببساطة أصبحوا مدمنين تماماً. اضطررتُ لأن افعل العكس كي لا يتفاقم الأمر، وعليه واصلت إطعامهم القرد المحشي إلى أن لم يعد متبقياً منهم شيء».

«هكذا إذاً تخلّصت منهم»؟

«جزئياً فقط، أصبحوا لا مرئيين، لكنهم ما زالوا هنا».

«هنا أين»؟؟

«هنا في المحل. بالرغم من أنهم من دون اجساد إلا أنهم مأخوذون

الى الآن بالقرد المحشي. وعليه فهم هنا طوال الوقت، وبسببهم يبدو كل شيء باللون الأرجواني. لسبب ما يروق لهم هذا اللون أكثر من اي لون آخر. هذا أقصى ما استطعتُ تقديمه لهم».

تأملت حولي المكان الخالي.

«لن تتمكن طبعاً من رؤيتهم. لكن لن يكون صعباً تخمين مكانهم بهذه اللحظة. جميعهم يتسكّعون حولنا، هؤلاء المساكين. لعابهم يسيل من أفواههم غير المرئية. لن تتخيّل كم يحسدونك».

دفعتُ صحني الفارغ الى وسط الطاولة.

«لماذا لا تُلغي القرد المحشي من القائمة»؟

«لكنه ليس جزء منها»

«أنت عرضته علي»

«أنت من طلب طبقاً خاصّاً»

«لم أقصد شيئاً بهذه الخصوصية»

«اسمع، ليس لديك مبرر للانزعاج، كلانا أبلى جيداً، أنت تذوّقت حلوى لا تحمل أي نتائج سيئة، وأنا أضفتُ يوما جديداً لمجموعتي» قالها وهو يربت على جيب مئزره.

قمت برسم دائرة في الهواء بإصبعي وأنا أسأله: «ماذا عن مساحة الفراغ»؟

«لن تلمحها أبداً. بكل حال هي لن تضرّك، ستذكّرك فقط كم ثمين هو الماضي. كنت تتوق لأن تتنازل عنه بسهولة».

لم أعرف بم أجيبه، غرقنا في الصمت.

«هل تود تذوق طبق آخر من القائمة، أقل خصوصية»؟ قال الطاهي أخيراً.

«بالرغم من أنها لا تُقارن بالقرد المحشي، إلا أنها معجّنات ممتازة »

«لا. شكراً لك » أسرعت بالرد وأنا أهم بالنهوض «ربما في مرة قادمة. إلى ذلك الحين وداعا»

«إلى المرة القادمة إذاً». قال الطاهي وهو يقف أيضاً.

اتّجهت للباب بخطوات واسعة بينما أرتدي معطفي، في حيرة من ازدواجية هذا الوداع.

(2)

جامع الأظفار

قام السيد بروهاسكا بجمع قلامات أظافره. بقي يفعل هذا منذ عمر الثامنة، حيث قام بقصها لأول مرة من دون مساعدة أمه. كان فخورا جداً انه أتم المهمة دون أن يؤذي نفسه لدرجة أنه قرر أن يحتفظ بتلك المناجل الصغيرة العشرة دليلاً على إنجازه. كان عليه القيام بهذا بسرّية تامة، فأمه حتماً لن تسمح باحتفاظه بهم على أية حال. كان يضعهم في كيس بلاستيكي صغير مع ملصق مدوّن عليه التاريخ... كان بذلك الوقت يواجه صعوبة مع الأحرف، لكنه جيد فيما يتعلق بالأرقام. يخبئ الكيس في مكان سرّي. بعد اسبوعين تقريباً، عندما حان وقت تقليمه لأظافره، تردد قليلاً قبل أن يضع تلك القصاصات الصغيرة التي تشبه المناجل في الكيس مع تدوين التاريخ عليه. لم يكن يملك قراراً يتعلق بهذا الطقس على المدى الطويل. يشعر أنه أمر مؤسف أن يرمي بها وحسب. كانت هذه الفكرة تشعره بأنه يلقي أجزاءً من جسده.

نعم، لم يعد مرتبطاً بها جسدياً، لكن هذا لم يؤثر في صلته بها، قد تكون انفصلت عنه، لكنه يملك خيار إبقائها بقربه. كان يشعر بالأسى على كل تلك الأظفار التي رمت بها والدته قبل أن يبلغ الثامنة التي

ضاعت منه للأبد. بقي يجمع أظافره بشكل منظّم، لكن مرور الوقت خلق مشكلة إيجاد مكان مناسب لإخفاء الأكياس الصغيرة. كانت هناك خمسة وعشرون الى ثلاثين كيساً منها. لم يكن من السهل إبقاؤها مخفية في علب الأحذية؛ تقريباً مرتين الى ثلاث مرات عثرت عليها والدته. لم يشعر بارتياح إلا عند بلوغه بداية عشرينياته، عندما استقل في بيت لوحده.

احتوت مجموعته على ما يزيد عن أربعمئة كيس صغير ملأت ثلاث علب أحذية. حلّ أخيراً الوقت الذي استطاع ان يقوم فيه بعدّها وترتيبها دون الخشية الدائمة من أن يقبض عليه احد وهو يقوم بأمر غريب كهذا، بالرغم من أنه لم يكن مطلقاً خجلاً من سرّه.

كان خجله يكمن في احتفاظه بشيء منه يعنيه أمره في مكان غير لائق كعلب الأحذية. كان يشعره هذا الأمر بأنه يدنس مقدساً، ويلح عليه إحساس بوجوب إيجاد مستودع يُكرم مجموعته بشكل أفضل. وبالرغم من انه لم يملك الكثير من المال، لم يمنعه هذا من طلب 500 علبة سجائر مصنوعة خصيصاً له. لو كان أغنى، لكان طلب ان يتم صنعها من الفضة الخالصة. لكن في ظل هذه الظروف الحالية اضطر أن يطلب أن تكون مطلية فقط بالفضة. كل علبة كانت تحمل تاريخاً محفوراً على غطائها وبداخل كل واحدة خطان منحنيان بلون ارجواني فخم، كل واحد منهما يحوي خمس ثغرات بشكل مناجل.

استغرق الامر بضعة أشهر لنقل الأظافر من الأكياس الصغيرة للعلب الجديدة، على الرغم من أنها كانت مهمة شاقة وصارمة إلا أنه أتمها بصبر ودقّة، يستهلكه الذعر من أن يفشل في الأمر. كان من الصعب تحديد لأي اصبع يعود كل ظفر. في النهاية نجح في الأمر وكل ما كان يحتاجه هو

لمسة سريعة لوضع كل قصاصة في مكانها. كان يعتبر نفسه وبفخر خبيراً في هذا الأمر الذي يحدد هويته. كانت أخيراً مجموعته مودعة في مستودع مناسب، لكن في يوم شعر بعدم ارتياح وهو يحدق فيها بفخر جراء فكرة عبرت مخيلته. ماذا لو اقتحم لص شقته؟ سيتوجه رأساً الى علب السيجار الفاخرة، وخاصة أن لا شيء آخر قيّم هنا. ربما، وهو في عجلة من امره، لن ينتبه لما في داخلها.

لاحقاً سيتخلص من الأظفار دون شك لأنها لا تحمل أي قيمة بالنسبة له. هذا الأمر أخاف السيد بروهاسكا؛ كان يجب عليه أن يمنع هذا الأمر من الحدوث بأي طريقة. أسرع الى المصرف، استأجر صندوق امانات ودون أدنى تأخير قام بنقل العلب اليها، لم يشعر باطمئنان الى ان انتهى من نقل آخر علبة سجائر.

كان يذهب للمصرف مرة كل شهر لنقل علبتين جديدتين. ودائماً ما قضى وقتاً طويلاً في غرفة صناديق الأمانات، ملتذاً بمنظر الأظفار المنمّقة بعناية. ثم قفزت أمامه في تلك اللحظة فكرة أخرى غير متوقعة مجدداً عكّرت صفو استمتاعه. ماذا لو لم يستوعب هذا الصندوق جميع الأظافر في المستقبل؟

بطبيعة الحال لم يعلم كم عدد الأظافر التي ستملأ هذه الخزينة، لكنه وبعملية حسابية بدت بسيطة له استطاع أن يستنتج انه إن بلغ السابعة والثمانين ونصف السنة من العمر، ستمتلئ الخزينة بعلب السجائر. إن قدّر له أن يعيش لوقت أطول سيتحتم عليه ان يستأجر خزينة اكبر حجماً او خزينة اضافية إن لم توجَد خزائن أكبر.

لهذه المعضلة حل مناسب، لكن ليس للمعضلة الكبرى، لتلك المعضلة التي لم تطرأ على باله قبل هذا بالرغم من قوتها. ماذا سيحل بأظافره بعد موته؟ يجب ان يحضّر لهذا الاحتمال بأقرب وقت ممكن. نعم، ليس هناك من داع للقلق، فهو في حالة صحية ممتازة بالنسبة لعمره. لكن الأمراض ليست وحدها سبب الموت، فالمصائب تنتظر في طابور وهي خارج سيطرتنا.

أسوأ ما يمكن أن يحدث له هو الموت المفاجئ دون ان يقوم بتأمين دائم للاعتناء بمجموعته. سيتم فتح صندوق الأمانات كجزء من تركته وإفشاء سرّه. يجب أن يمنع حدوث هذا الأمر بأي شكل.

نعم، لكن كيف؟ ربما أمكنه ان يستأجر صندوقاً آخراً لكن ليس باسمه بل باسم مجهول، كي لا يتم فتحه في حال موته؟ سيتم فتح الصندوق بكل حال عندما يحل موعد انتهاء الإيجار. فليكن، سيستأجره لوقت طويل جداً. لم يكن متأكداً من الفترة التي يمكن اعتبارها طويلة جداً، مرت بفكره فترات مختلفة، من قرن إلى ألفية كاملة. لكنهم أخبروه في المصرف أن أقصى مدة لاستئجار الصناديق هي 25 سنة لا أكثر.

لم يكن هذا بالتأكيد كافياً بالنسبة له. غادر المصرف مكتئباً، ولم يغادره هذا المزاج بعد ذلك. تفاقم هذا الشعور السيء اكثر عندما تذكر أمراً كان قد نسيه. الأظفار تستمر بالنمو لبعض وقت في الجثث. كما أنه لا يمكنه فعل شيء فيما يتعلق باسترداد أظافر طفولته، وعليه كان من الضروري أن يحتفظ بهذه. في حال ضياع مجموعته ماذا ستكون العيّنة الأهم؟ إذاً، ماذا يجب عليه أن يفعل؟ سيكون ميتاً ولن يستطيع تقليم أظافره في القبر. على من سيعتمد لإتمام هذه المهمة؟

بالرغم من أن هذه المشكلة لم تفارق عقله، إلا أنه لم يفلح في العثور على حل لها ـ إلا في ظهيرة يوم ممطر ومن حيث لم يكن متوقعاً. باغته الحل في لحظة أشبه بالتنوير العميق، كانت فكرة مذهلة ببساطتها، كما عملية حسابية. شعر برغبة في الرقص بفرح، لكنه بالطبع امتنع عن ذلك، كونه رجلاً معتاداً على السلوك المهذب، بالرغم من أن أحدا لم يكن ليراه بتلك اللحظة التي ودَّ فيها ان ينفس عن غبطته.

إن كان الموت هو العائق الوحيد في طريقه، إذاً هنالك حل وحيد للتغلّب عليه، لمرة واحدة وللأبد. قرر السيد بروهاسكا وبشكل صارم أن لا يموت أبداً.

(3)

جامع التواقيع

«مساء الخير، هل هذا المقعد محجوز»؟

رفعت نظري من الجريدة التي كنت أقرأها وأنا جالس على الكرسي في الحديقة. خلع الرجل العجوز الضئيل البنية قبّعته وهو واقف أمامي، كاشفاً عن شعر أبيض، شارب خفيف ابيض أيضا وتحته تتسع ابتسامته العريضة.

«نعم، تفضل بكل سرور» نهضتُ قليلاً وأنا أفسح له مجالاً للجلوس.

«شكراً» جلس الرجل على الجانب الآخر للمقعد وهو يضع قبعته في حِجره. كان يرتدي بدلة غامقة مزدوجة الصدر من الطراز القديم. ربطة عنقه الفراشية الشكل كانت بلون الأرجوان، كبيرة ومائلة قليلاً، وبدت مستعدة للطيران بأي لحظة.

عدت لقراءة جريدتي، لكن ليس لوقت طويل.

«يوم جميل» قال العجوز

«رائع»!! أكّدت وأنا لا ارفع نظري عن الصحيفة لأفهمه أني لا أود التحدث.

لكن الرجل تجاهل إشارتي: «محزن ان يموت الفرد في يومٍ كهذا»

طويت الصحيفة وأنا انظر اليه بفضول: «يموت»؟

«نعم. من المفترض أن يموت اكثر من ثمانين شخصاً اليوم في هذه المدينة الكبيرة».

«ومن أين علمتَ عدد من يفترض بهم أن يموتوا»؟

«هذا ما تقوله الاحصاءات. ما يقارب 30,000 يموتون كل سنة. هذا يعني 80 شخصاً لكل يوم. أو شخص واحد كل 18 دقيقة.

«مثير للاهتمام» اجبته وأنا أعود لصحيفتي. لكني لم أتمكن من القراءة لأن العجوز تحدّث مجدداً.

«هذه مجرد إحصاءات بالطبع. في بعض الأيام يزيد عدد الموتى عن غيرها. هل يمكنك تخمين اكبر عدد للموتى في يوم واحد في الربع الاخير من القرن»؟

«لا. لا يمكنني» أجبته وأنا أنظر للصحيفة من دون أن أقرأها.

«مائتان وستون شخصاً»!

«كل هذا العدد»؟! قلت بصوت هادئ وأنا أطوي الصفحة.

«نعم، كان الأمر جارفاً حقاً، كان يوماً جميلاً كهذا، لكن هذا مجرد وهم. الجو يمكنه ان يحمل مفاجآت شريرة. أغلب من فارق الحياة بذلك اليوم كان من مرضى القلب. تخيل فقط أنه لا يمكن انقضاء سبع دقائق من دون أن يموت شخص جديد.

«هذا مريع».

«ثم طبعاً هناك الأيام الاخرى التي تطبق السماء فيها على الأرض، تمطر دون توقف، ينقلب فيها أكثر الناس مرحاً إلى التجهّم والعبوس، والسوداويون تتضاعف كآبتهم وصولاً إلى الانتحار. وبالرغم من هذا كله لا أحد يموت. في يوم كهذا تم تسجيل 26 حالة وفاة وحسب، فقط تأمل هذا».

«لا يُصدَّق»! قلتُ وأنا أفتح الصحيفة لأقصاها وأخفي رأسي وراءها كي لا أرى العجوز ولا يتمكن من رؤيتي بدوره.

«يموت الناس لأسباب مختلفة» تسلَّل صوت الرجل إليّ مجدداً «عندما تسمع بأن فلاناً مات لأسباب طبيعية قد يعني هذا أي عدد من الأمراض. بالنسبة لبعض منها قد تعتقد انها ليست أمراضاً قاتلة. مثلاً، كانت هناك السنة الماضية حالتان عن موت بسبب وجود سوائل في الرُكبة، ألم تسمع بهما»؟

«لا. لم أسمع». أجبته بشكل قاطع.

«ماذا إذاً تقول عن الموت بسبب تساقط الشَعر، بسبب الأورام او التهاب الكوع بالنسبة للاعبي التنس»؟

«إلتهاب كوع لاعب التنس»؟ سألتُه غير مصدِّق، وأنا استرق النظر اليه.

«نعم. صدّق أو لا. حالة غير مألوفة. يمكنني أن اخبرك القصة إن احببت.

«لا شكراً». أسرعت بالرد وعدت للانغماس بالجريدة.

«أغلب الحالات ليست طبيعية». تابع العجوز بلا هوادة «هل تعلم مثلاً عدد الأشخاص الذين يموتون سنوياً في هذه المدينة جرّاء صعقة من البرق»؟

«هززت رأسي نافياً، رغم أنه لم يكن ينظر لي.

«خمسة ونصف. بالرغم من وجود مانعات الصواعق. مع هذا لا يمكن اعتبار هذا هو البلاء الوحيد الذي تهدينا إياه السماء. يموت الناس، وهذا أمر نادر، بسبب أشياء تقع عليهم. أغلبها من الطوابق العليا للمباني أو الطائرات، لكن هناك أيضاً أجساماً سماوية. تقريباً كل سنة يموت أحدهم بسبب نيزك ما. هل تساءلتَ يوماً عن فرص تعرضك لضربة من حصاة كونية لا يزيد حجمها عن حبة بازلاء»؟

لم أجبه أو أقوم بأي حركة. كنت أحشر أنفي بالجريدة لدرجة لا أستطع معها حتى القراءة.

لم يؤثر صمتي في العجوز «تقريبا الأمر لا يمكن حدوثه. فرص فوزك باليانصيب أكثر بكثير. مع هذا، تحدث كل هذه المصائب».

ساد الصمت قليلاً، وتبخّرت آمالي بعدها في ان يكون العجوز انتهى من هذا الحديث.

«قد يهوي على رأسك ما هو اكبر أيضاً. احدهم التقى بخالقه وهو تحت بيانو هوى على رأسه من الطابق التاسع»

كان من المفترض ان أمثّل أنني غير مهتم بالحديث، لكن فضولي هزمني: «من الطابق التاسع»؟ سألته من وراء الجريدة

«نعم، الطابق التاسع. كانوا ينقلونه الى الطابق السابع عبر النافذة، عندما انقطع الكابل. هذه الحادثة على الأقل منطقية بشكل ما، فالرجل الميت كان مضبّط إيقاع بيانو متقاعد. ثم ما رأيك في مقتل رجل دهساً تحت أرجل فيل وسط المدينة»؟

أنزلت الجريدة وأنا أحدّق في الرجل

«أ لم تسمع عن هذه الحادثة»؟

هززت رأسي.

«كان هناك سيرك يعبر، ولزيادة الإثارة للحشود، تم ربط الحيوانات بالبالونات والرايات، وإنزالها بشكل استعراضي من المناطيد. تشابكت الحبال التي كانت تمسك بالفيل ودفع ثمن هذا حلّاق مسكين. الفيل أيضاً مات طبعاً.

لم أستطع مقاومة الرد عليه: «حقاً»؟

تجاهل العجوز إهانتي قائلاً «نعم. لكن هناك أحياناً نتائج مفرحة ايضاً، منذ فترة قريبة قفز من الجسر متهور ينوي الانتحار فسقط على رأس إطفائي خارج ساعات عمله صادف أنه كان يعبر تحت ذلك الجسر. الإطفائي فارق الحياة مباشرة، بينما نجى الانتحاري وبجروح طفيفة».

أغلقت الصحيفة وطويتها مرتين.

«كل هذا مثير للاهتمام، لكن أ لا تظن ان هناك أموراً أجمل يمكن التحدث عنها غير الموت في يوم جميل كهذا»؟

«طبعاً. لكن كما قلت، الناس يموتون في أيامٍ كهذه أيضاً».

هنا شعرت بأن أمرا يتّضح لي، لم أستطع أن أفكر بشيء سوى سؤاله: «هل تشعر بأنك على ما يرام»؟

«بأفضل حال» أجاب الرجل بمرح. «وسأكون بحال أفضل ان منحتني توقيعك».

أخرج من جيب معطفه دفتر ارجواني صغير وقلم معدني. فتح الدفتر وتصفّحه قليلاً ثم أعطاني إياه مع القلم.

أخذتهما منه، كانت صفحات الدفتر ارجوانية أيضاً، وكان القلم ثقيلاً بعض الشيء.

«توقيعي»؟

«نعم» قالها وكأنها تفسّر كل شيء.

«لماذا بربك قد تحتاج لتوقيعي؟ لستُ أحد المشاهير»

«لستَ بعد، لكن ان قدّر لك أن تصبح مشهوراً فسيكون لتوقيعك هذا قيمة عالية، خاصة وانه يعود لما قبل شهرتك».

ظننتُ أني جيد في مقاومة إغراء الإطراء، ولم يؤنبني ضميري أبداً وأنا أمنحه توقيعي ثم أرجعت له الدفتر والقلم.

«لا أرى ما يمكنه أن يجعلني مشهوراً» قلتُ بشيء من الخجل، وكأني أعوّض عن قلة تواضعي قبل قليل «أنا رجلٌ عاديّ ولا أبرز في أي حدث»

«لا تكن هكذا، حتى الانسان العادي يصبح مشهوراً. خذ على سبيل المثال مضبِّط البيانو، الحلّاق ورجل الاطفاء الذي ذكرته لك. تلقّوا جميعهم شهرة ودعاية كبيرة».

نظرت إليه بقلق: «لا اتوقع أن أستمتع بشهرة قد تأتي من بيانو، فيل، أو منتحر فاشل يهوي على رأسي».

«هذا طبيعي، لكننا لسنا في موقف نملك فيه الخيار. هكذا امور تحدث دون اعتبار لرغبتنا».

«لا اتمنى ان يحدث لي أمر كهذا» قلت مبتسماً «لن تنال شيئاً من وراء توقيعي».

«هذا ما قاله الآخرون، لكنهم كانوا على خطأ».

«من تقصد بالآخرين»؟

«مضبِّط البيانو، الحلّاق والإطفائي وآخرين. انظر فقط لعدد التواقيع التي بحوزتي».

أخذ يتصفح دفتره. عشرات التواقيع كانت تملؤه».

«لمن تعود هذه التواقيع»؟ سالته بصوت خفيض

«أناس ماتوا بسبب أمور سقطت عليهم، أخذت منهم تواقيعهم في اللحظات الأخيرة التي سبقت موتهم. مجموعتي تضم قصصاً كثيرة غير هذه، بعضها غير مألوف اكثر من الثلاث التي ذكرتها لك».

نظر لساعته: «لسوء الحظ لن أستطيع ان أرويها لك لأن وقتك على وشك النفاذ. لديك تقريبا خمس وأربعون ثانية».

«قبل ماذا»؟ انخفض صوتي لدرجة الهمس

وقف الرجل واعتمر قبعته وأشار للأعلى: «شيء ما سيهوي عليك من هناك».

«حسناً، لا يمكنني إخبارك. كل ما يمكنني قوله هو أنك ستصبح معروفاً جداً. سيتحدث الإعلام عنك لوقت طويل، عن الحادث الذي لا يُصدَّق الذي حل بك.آنذاك سيكون لتوقيعك قيمة عالية في مجموعتي. اتمنى ان تسامحني. والآن اسمح لي بالمغادرة لأنني يجب أن أبتعد عنك بأسرع وقت ممكن، ليس من الحكمة أن أبقى في محيطك. وداعاً».

تأملته وهو يبتعد عني ونقلت بصري للسماء، كانت زرقاء صافية، دون حتى أثر لطائرة عابرة. بينما انقضت الثواني ببطء، شيء ما كان يدفعني لأن أهرع لمكان خارج هذا الطريق المحفوف بخطر مجهول. لكنني لم أفعل. لأنه سيكون دون جدوى. لقد منحته توقيعي، وعليه لا مفر من الشُهرة التي كانت تنتظرني.

(4)

جامع الصور

كان السيد باليفاك يجمع صوره، كان يفعل هذا منذ بلغ الثالثة والثلاثين. كان آنذاك قد أهدى نفسه كاميرا في عيد ميلاده. كانت من تلك الأجهزة الأقل ضجيجاً من متجر فخم. اضطر ان يجمع ثمنها لوقت طويل. لهذا السبب، اهدى نفسة هدايا متواضعة جدا في عيديه السابقَين. عندما بلغ الواحدة والثلاثين كان مضطراً لتقبّل كتاب مستعمل كهدية استمتع بقراءتها. بعدها بسنة أهدى نفسه لوحة مرسومة بألوان مائية،بعد بعض التعديل لم تكن لتبدو أنه اشتراها بسعر منخفض.

بقي لمدة ثلاثة اشهر ونصف الشهر يدرس تعليمات الكاميرا، لم يكن يوما جيداً عندما يتعلق الأمر بالأجهزة الميكانيكية، وعليه كان يحتاج لجهد كبير. لكن مع مثابرته الفطرية واجتهاده تمكن من ان يصبح خبيرا في فن التصوير، على الأقل من الناحية النظرية. عندما وضع لفّة الفيلم الأولى في كاميرته، كان بالفعل يعتبر نفسه مصوّراً محترفاً. وعندها تفجّرت معضلة غير متوقعة.

لمن يلتقط الصور؟ لم يكن من اللائق أن يخرج للشارع ويبدأ بالتقاط

الصور للغرباء.لا يمكنه توقع ردود الفعل آنذاك.هو نفسه لا يريد أن يكون بموقف كهذا. قد يكون هناك قانون يمنع التقاط الصور دون استئذان. ماذا عن التقاط صور لا يظهر فيها أشخاص؟ يمكنه مثلاً التقاط صور للمباني، الطبيعة أو الغيوم.لا، لا يناسبه هذا. الصور يجب أن تظهر الواقع وليس العناصر الثابتة كما في اللوحات المرسومة بالألوان المائية.

في الوقت الذي اعتقد فيه انه قبالة جدار صلب، قفز حلٌّ سهل الى رأسه.سيلتقط صوراً لنفسه. طبعاً! ماذا قد يكون مناسباً اكثر من هذا؟ كان دون شك كائناً حياً، ولا يمكن ان يكون هناك قانون يمنع التقاط الشخص صوراً لنفسه. بكل حال، حتى لو كان الأمر ممنوعاً، لماذا هنالك في كتيِّب التعليمات فصل كامل عن كيفية التقاط الصور الذاتية.

بدأ العمل فوراً. ا

اختار أولاً أجمل زاوية من شقّته، نمّقها أكثر، ثم عاد لقراءة التعليمات مجددا، تحسّباً فقط، على الرغم من انه يحفظها عن ظهر قلب.

استغرق الأمر بعض الوقت لمعرفة الارتفاع المناسب للكاميرا في غياب الحامل الثلاثي الأرجل.قام بوضع كرسي على آخر وأضاف بضعة كتب. التوليفة لم تكن ثابته تماماً، لكن إن بقي حذراً فلن يحدث أي خطا.

امضى بضع دقائق امام المرآة يتأنق، واخيراً جلس قبالة الكاميرا، ممسكاً بالسلك الفضي الذي يستخدم لالتقاط الصور من مسافة، لكنه لم يلتقطها مباشرة. أدرك فجأة أن الوضعية التي يأخذها وقت التقاط الصورة ستحدث فرقاً كبيراً. نعم، لا ينوي أن يري هذه الصور لأحد، لكنها بكل حال ستعمّر أكثر منه. هل يمكن أن يأخذ الناس عنه انطباعاً سيئاً بعد وقتٍ

طويل فقط لأنه لم يتّخذ وضعية مناسبة؟ عاد للمرآة وقضى وقتاً يحاول فيه تجربة تعابير مختلفة. في النهاية اختار شيئاً يمكن وصفه بالجذّاب الودود.

بمجرد التقاط الصورة ظهرت معضلة أخرى. كان يتوق لرؤيتها مباشرة. لكن هذا لسوء الحظ لم يكن ممكناً. أخذ الفلم للتحميض الان سيهدر ماله. سوف تضيع الصور الخمس والثلاثون المتبقية. لا. يجب استخدام اللفة بأكملها قبل أن يأخذها للتحميض. كان يميل لأن يجلس قبالة الكاميرا ويلتقط الصور المتبقية بسرعة، لكن منعه من ذلك إدراكه انه ليس بحاجة لكل هذه النسخ من الصورة نفسها. ماذا سيظنون في محل التحميض؟ سيعتقدون انه شخص مهووس بنفسه. فكّر مطوّلاً بما يجدر به فعله. القرار الذي وصل اليه لم يكن مثالياً، لكن لا شيء سواه مر بباله.

سيواصل التقاط الصور لنفسه، لكن مرة كل شهر، كل خامس من الشهر سيلتقط صورة جديدة في الوقت نفسه. هذه الخطة كانت تحمل عيباً واحداً، ستنقضي ثلاث سنوات قبل أن يتمكن من رؤية جميع الصور. سيستلزم الأمر كمية هائلة من الصبر.

فيما يتعلق بالانتقاد المتوقَّع بشان غروره، كان هناك أمران ينصفانه. بالرغم من أن الصور كلها قد تبدو متشابهة، إلا انها ليست نفسها وكأنها التُقطتْ جميعها في اليوم ذاته. لا مفر من بعض الاختلافات الطفيفة. الناس يتغيرون بمرور الوقت، وثلاث سنين ليست مدّة بسيطة. بالإضافة، يمكنه فعل شيء لمساعدة الصور على ان تبدو مختلفة بعض الشيء. ليس بالضرورة أن يبقى على وضعية الجذاب الودود . يمكنه اتخاذ وضعية الخطير الودود، أو الودود الرصين مثلاً.

لم يهدر الوقت بينما يمتلئ الفلم بصوره المأخوذة في المكان نفسه وهو مرتدٍ ذات الثياب. كان الأمر يستحق استعدادات لاستقبال الصور. انها بالطبع، تستحق أفضل ألبوم يمكن شراؤه. عندما عرف ثمن الألبوم المغلّف بالجلد، بصفحاته المصنوعة من الورق المقوّى المكرر والرابط الحلزوني المذهّب، علم انه سيهدي نفسه في العيدين القادمين هدايا متواضعة. لعيد ميلاده الرابع والثلاثين ابتاع لنفسه اسطوانة فونوغراف من محل شعبي. صحيح انه لم يملك مشغل اسطوانات، لكن الاسطوانة كانت رخيصة، وكان هو من محبّي موسيقى الاوركسترا. هدية ميلاده الخامس والثلاثين أتت من مكان أكثر تواضعاً: سوق السلع القديمة. بنظرة تمكن من التأكد أن التمثال المكسور لم يكن من الرخام الحقيقي، لكن لا يمكن لشخص في موقفه ان يطمع في أكثر من هذا.

اشتعل فرحاً عندما استلم الألبوم الفخم في عيد ميلاده السادس والثلاثين. تمادى في الصرف بحيث قام بشراء قفاز أصفر كي لا يلمس الألبوم بيديه. كان كثير التحسّس عندما يتعلق الأمر بالنظافة الشخصية، وبغض النظر عن كيفية غسله ليديه إلا أنه لن يسمح للآثار الزيتية بتلطيخ الالبوم.

سريعاً شعر بحاجة ملحّة لاقتناء شيء جديد، لا يمكنه استخدام أي قلم قديم للكتابة على الألبوم، يجب أن يكون قلماً خاصاً وسلساً في الكتابة على الورق المقوّى. يترك خطاً رفيعاً لكنه واضحٌ. اشتراه لعيد ميلاده السابع والثلاثين وأهداه لنفسه قبل حلول الذكرى بوقت طويل.

شرع بكتابة التواريخ بدقّة فوق مكان كل صورة. كان يملك خطاً جميلاً، نعم هو مائل قليلاً، لكنه مقروء بشكل جيد. كانت هناك ست وتسعون صفحة في الألبوم، كل منها تحمل اربع صور. قضى اربعة

مساءات يعمل فيها باجتهاد وحرص على ان لا يكون هناك اي خطأ. ستكون هذه كارثة. بعدما أنهى المهمة، أدرك أن الألبوم سيحمل صوراً له وصولًا إلى عيد ميلاده الخامس والستين. كان هذا الامر جيداً جداً، ذلك أن هوايته هذه لن تكلّفه الكثير على مدى عقدين من الزمن، بل يمكنه شراء البوم جديد دون التقتير على نفسه. ولن يتحتم عليه تحمل هدايا متواضعة في أعياد ميلاده القادمة.

بقلق أخيراً ذهب لمحل تحميض الصور لاستلامها، بعد 36 شهراً على التقاط الأولى. بالكاد استطاع أن ينام في ليلته السابقة. ماذا لو لم تظهر الصور؟ هذا ممكن، فالفلم تجاوز تاريخ انتهائه من مدة، وقد يكون قد قام بخطأ ما. كان يشعر بالذعر من فكرة ان يذهب أثر ثلاث سنوات من حياته سدى بهذه البساطة. وكانه لم يعشها.

تنفس الصعداء وهو يستلم مظروفاً يحوي صوره. استلزم الامر كماً هائلاً من ضبط النفس لمنع نفسه من فتحه في المحل أو في الطريق الى شقته. قبل أن يُخرجها، ارتدى قفازه الأصفر. امتلأ فخراً وهو يتأمل وجهه الجذاب، الودود والرصين في أقدم صوره، كانت تمثل بورتريه احترافياً وليس مجرد صورة.

تفاقم حماسه وهو يتأمل الصور الأخرى، يمكنه بسهوله أن يعرف أياً من الصفات الثلاث تسود تعابيره في كل واحدة منها. لم يعلم أيها كانت تمنحه هذا الشعور العظيم بالرضا: هل ما يبدو عليه في الصور أم براعته في التقاطها. لم يكن هناك أدنى خلل تقني يمكنه أن يفسد عليه سعادته. لسبب ما كانت كل الصور تحمل مسحة ارجوانية ـ ربما بسبب بقاء الفلم في الكاميرا لمدة طويلة. بكل حال ما من داع لتعقيد الأمور .

وضع الصور في الألبوم بعناية حريصاً على ان تكون كل صورة في مكانها المحدَّد مسبقاً. النيجاتيف كان عاملاً مساعداً له في هذا الشأن لان تسلسله يساعده في تحديد تاريخ التقاط الصورة. نظر اليها مرة أخرى مستعيناً هذه المرة بعدسة مكبّرة. ووصل لاستنتاج أن الصور تبدو بشكل أجمل وهي في الألبوم، حيث يكون مظهره الجذّاب الودود والرصين واضحاً.

أصبح النظر للصور طقساً راسخاً لما بعد ظهر السبت من كل اسبوع. كان يقاوم رغبته في فتح الألبوم في اوقات أخرى. لا ينبغي الانغماس في الملذات كي لا تفقد سحرها. مرة في الاسبوع كافية.

أصبح طقس يوم السبت يطول ذلك ان مجموعة جديدة من الصور كانت تنضمّ للألبوم كل ثلاث سنوات. بالرغم من انه أصبح خبيراً بالفعل في التصوير الا ان الخوف لم يفارق السيد باليفيك في كل مرة ذهب فيها الى المحل لاستلام الصور، لتحلّ محلها الغبطة حال وصوله لشقّته. كان العيب الوحيد بالصور هو تلك المسحة الارجوانية، لكنه اعتاد عليها لدرجة أن غيابها قد يربكه.

امتلأ الألبوم اخيراً عند بلوغه السادسة والخمسين. وبالرغم من أنه قام بجمع مبلغ كاف خلال عقدين يستطيع به أن يشتري ألبوماً جديداً، إلا انه لم يكن على عجلة من أمره. ستنقضي ثلاث سنوات قبل أن يستلم مجموعة الصور الجديدة. يمكنه خلال هذه المدة أن يستمتع بما يعتبره إنجازاً جميلاً. شعر بنفسه كأنه كاتب يستمتع بتلك اللحظة التي يُنهي فيها روايته الطويلة. ليست أيّة رواية، بل رواية يكون هو شخصيتها الوحيدة.

عندما فتح الألبوم في ظهيرة السبت الأول بعد إضافة الثلاث والستين صورة الاخيرة، كانت بانتظاره مفاجأة غير سارة. الصور في الصفحة الأولى بهتت جزئياً، وجهه بدى وكانه يختفي، بينما الخلفية بقيت واضحة. بقي يقلّب الصفحات بشكل محموم ليكتشف ان الشيء ذاته حدث للصور الأخرى.

أغلق الألبوم وأخذ يجوب الغرفة. استوقفه أمر وهو يمر قرب المرآة وأجبره على العودة. ما رآه كان هو ما رآه في الصور. كانت فقط حدود وجهه ظاهرة، وكل شيء خلفه واضح بشكل حادّ، اقترب حد الالتصاق بالزجاج، لكن بقي وجهه غير واضح.

عاد للطاولة وفتح الألبوم من الوسط. لم يعد يفاجئه التغيّر، كان صدره ما زال موجوداً في الصور، لكن رأسه بدا شفافاً. كان قد اختفى تماماً؛ بينما ظل الجدار الذي خلفه في مكانه، مرّرَ أصابعه الصفراء على الصور ليتحسس لا مرئيته. لم يكن مضطراً للعودة للمرآة، عالماً أنه لو حاول لمس وجهه ستغور أصابعه في الفراغ فوق عنقه. بقي محدقاً لفترة محاولاً جمع أفكاره. كان بحاجة لنظرة واعية لوضعه الجديد. لم تكن تخلو بالطبع من جوانب سلبية كثيرة. لم يكن كل شيء أسود. مع هذا، ليس هناك ضرورة بعد الآن لشراء ألبوم جديد. يمكنه ان ينفق مدخراته على شيء آخر.

(5)

جامع الأحلام

في البداية ظننتُ اني سمعت صوت رنين الأجراس التي كنت اعلّقها على جسدي وأنا طفل. لكني لم أعد طفلاً الآن. ثم شعرت وكأنه جرس يتدلّى من رقبة خروف يقود قطيع غنم. لكنني لم اكن في قرية. وأخيراً خلصتُ، وبسبب قوّة الرنين، انها لابد أن تكون أجراس الكنيسة. لكن في حلمي لم تكن هناك من كنيسة.

إدراكي لكوني كنت أحلم أيقظني. لم استطع رؤية نفسي في الحلكة، ولم يكن هناك من شك أن الرنين كان عائداً للهاتف الجاثم على الطاولة بقربي. يقطع سكون الليل الهادئ بزعيقه المتواصل المزعج.

مددت يدي للوصول الى المصباح المثبّت أعلى السرير، سطوع النور جعلني أغمض نصف إغماضة وأنا أنقلب لجانب الطاولة. نظرتُ أولا للساعة، انها الثالثة وسبع وعشرين دقيقة. بالرغم من ان الرنين بقي يدوي دون توقف، إلا اني بقيت محدقاً في عقارب الساعة غير مصدِّق.

أخيراً رفعتُ السماعة: «هلو» قلتُ بصوتٍ أجش.

«مساء الخير، أعتذر عن اتصالي بوقت كهذا، لكن يجب علينا التحدث دون تأخير» كان الصوت عميقاً وناضجاً

«من أنت»؟

«جامع الأحلام»

كان يجب أن أفصل سلك الهاتف قبل خلودي الى النوم. لكن من يمكنه أن يتوقع حدوث أمر كهذا له؟ لم يكن ينقصني سوى أن أصبح ضحية للمعتوهين الذين لا شاغل لهم سوى إزعاج الناس في جوف الليل.

«تصرّف صبياني كهذا لا يليق بعمرك». قلتُ بنبرة عصبية وأنا أهم بإعادة السماعة عندما استوقفتني كلماته: «رجال الإطفاء الأقزام»

أصبحت خلال لحظة في تمام يقظتي: «عفواً»؟

«كنت تحلم برجال اطفاء أقزام يلبسون خوذات ارجوانية يحاولون إخماد حريق يلتهم عنكبوتاً ضخماً، وما يخرج من الخراطيم لم يكن ماءً بل»..

«أعرف ما كان يخرج من خراطيمهم». قلتُ مقاطعاً إياه باقتضاب، «لكن كيف تعرف ما احلم به»؟

«أي جامع احلام اكون إن لم أستطع معرفة أحلام الناس؟، لستُ أعرفها فحسب بل أتذكرها افضل من أصحابها. لذلك اسرعتُ بالاتصال بك قبل أن يصبح الامر متأخراً جداً، ففي الصباح غالباً لن تتذكر أحلامك».

بقيتُ صامتاً بعض الوقت، أحاول جمع أفكاري قبل ان أنطق بكلمة، قرصتُ خدّي بيدي اليسرى. كان الألم حقيقياً.

سألته أخيراً بصوت هادئ: «ماذا تريد مني»؟

«حلمك»

«حلمي»؟

«نعم»

«لماذا تريد حلمي»؟

«أريد ضمّه لمجموعتي طبعاً. أنا أجمع الأحلام التي بها تفاصيل أرجوانية. لو لم يكن الأقزام يرتدون خوذات بذلك اللون لَما أزعجتك ابداً».

«وما الذي منعك أن تأخذها دون مشورتي؟ دون إيقاظي؟ ألا تقول اني سأنساها صباحاً»؟

«سيكون هذا مخالفاً للقوانين. لا يمكنك ضم حلم لمجموعتك من دون موافقة صاحبه».

«هل يعني هذا أنه بإمكاني الرفض»؟

«طبعاً، لكن هذا لن يكون في صالحك»

«حقاً؟ وكيف هذا»؟

«لأنك بذلك لن تحصل على الجائزة».

«جائزة»؟

«هذا صحيح، الاحلام لا تُمنح هكذا مجاناً، لكل شيء ثمن، حتى الأحلام».

«لم اكن اعلم»

«طبعاً ليست كل الأحلام متساوية في الثمن. غالبها في الحقيقة لا تساوي شيئاً ولا أحد يطمع فيها. أنت احد المحظوظين هنا، ذلك أن الأحلام ذات التفاصيل الأرجوانية هي أغلى الأحلام وأندرها. يمكنك أن تحيا حياة باذخة لسنين طويلة معتمداً على ما سأعرضه عليك في مقابل حلم الأقزام ذوي الخوذات الأرجوانية».

انتظر جامع الأحلام ان أقول شيئاً، لكني بقيتُ صامتاً وأنا غارق في حيرتي.

قال بعد مضيّ لحظات : «ربما من الأفضل أن تقبل هذا العرض. أنظر للأمر على أنه عمل فني وليس بالضرورة حلماً. المقارنة لا تجعل منه نقيضاً. الكثير من الناس يحاول خلق أعمال فنية لكن القليل فقط من ينجح في ذلك.

هذا شبيه بعالم الأحلام. الكثير يحلم، لكن عدد الأحلام الناجحة قليل جداً. هذه طبيعة الأشياء. الموهبة ضرورية للأحلام كما للفن، وأصحاب الأحلام الموهوبة نادرون. أنت حتماً أحدهم».

«لم أكن أعلم بهذا» تمتمتُ.

«هذا يحدث دائماً. الحالم الموهوب لا يعلم انه كذلك إلا عندما يخبره بذلك جامع الأحلام. أفخر بأنني قمت باكتشاف عدد من أكثر الحالمين موهبة. لو رأيت مجموعتي.. ليس هناك جامع أحلام لا يحسدني. لدي معرض كامل من روائع الأحلام الأرجوانية. سيكون حلمك في رفقة ممتازة».

«كم هذا لطيف» قلتُ ببلاغة، من دون ان تطرأ على بالي كلمة متماسكة اخرى في ساعةٍ متأخرة كهذه.

«إذاً كل ما علي فعله لتلقّي الجائزة هو منحك موافقتي»؟

«نعم. وأيضاً عليك ان تجيب عن بعض الأسئلة».

«أية أسئلة»؟

«أسئلة تتعلق بك. يجب أن أتأكد من بعض الأمور. فهناك بعض العوائق التي تمنع بعض الأحلام من الانضمام للمجموعة».

«عوائق»؟

«نعم. لسنا كبقية تجار الفن في هذا الشأن. تحقّق كهذا لن يكون ضرورياً لو كنا كذلك. فلنقل أنك فنان وأنا صاحب معرض. حياتك الخاصة في هذه الحالة لن تعنيني مطلقاً. لكن جامعي الأحلام يجب أن يتمسكوا بالقوانين الصارمة. فقط الأحلام الصافية من أية شوائب يمكنها ان تنضمّ للمجموعة. هذا الشرط تسبب في فقدي لعدد من العينات المميزة. لكن لا تقلق، تقريباً يمكنني التيقّن ان كل شيء معك سيكون على ما يرام. هل نبدأ»؟

«تفضل». قلت بعد وقفة قصيرة.

«هل قتلتَ أحداً»؟

«ما الذي أعطاك انطباعاً كهذا»؟ اجبتُ بغضب.

«برجاء لا تشعر بالإهانة. السؤال ليس موجهاً اليك بشكل شخصي. القتلة يحلمون أيضاً. بل أحيانا تكون أحلامهم قيّمة أكثر من أحلام

الأناس العاديين. واحدة من أجمل الأحلام هربت مني فقط لأن العجوز الحالم كان، دون قصد، قد تسبب في شبابه في موت امرأة عجوز، بالرغم من أنها ستموت لاحقاً في السنوات اللاحقة بنفس الطريقة. لكن ليس بيدي شيء. القوانين تبقى نفسها. فلنكمل. هل تعاني من أية حساسية ضد حبوب اللقاح أو ريش الأوز»؟

«لا، لا أعاني من أي منها».

«حسناً، هل عانى احد من أسرتك في الأجيال الثلاثة السابقة من اي اضطراب عقلي»؟

تفاقم غضبي مجدداً لكني بالرغم من ذلك أجبته من بين أسناني المُطبقة «بالطبع لا».

«جميل جداً. هل عانيت يوما من مرض مُعدي»؟

«الحمى القرمزية والنكاف».

«أ هذا كل شيء؟ الم تعان من التيفوئيد، الملاريا، الكوليرا، الجدري او الطاعون»؟

هززتُ رأسي بقوة مع أنه لم يكن مجدياً: «لا».

«رائع. هل تلتذّ بتعذيب الحيوانات الأليفة»؟

«ليست لدي أية حيوانات أليفة».

«إذاً لا تجد لذة في تعذيب الحيوانات. حسناً. هل تعاني من عمى الألوان»؟

«كيف لي أن أحلم بالأقزام ذوي الخوذات الأرجوانية إذا كنتُ مصاباً بعمى الألوان»؟

«لم يكن هذا ليقف في طريقك. ربما لا تعلم هذا، أحلام المصابين بعمى الألوان متخمة بها. محزن أن القوانين لا تسمح لنا بضمّهم الى مجموعاتنا. هل تخاف من المرتفعات»؟

«قليلاً نعم». أجبتهُ على مضض.

«عندما تكون على حافة هاوية، هل تصبح غير قادر على الحركة، تصاب بالغثيان أو تغرق في عرق بارد»؟

«أحاول البقاء بعيداً عن المنحدرات»

«تفكير ذكي. يمكننا استنتاج انك لا تعاني من خوف مرضيّ من المرتفعات. هل تجمع الطوابع»؟

«لا».

«هذا رائع. إلى الآن فقدت احلاماً كثيرة كان أصحابها من هواة جمع الطوابع».

«وما الخطأ في كون الحالم جامع طوابع»؟

«ليس بخطأ طبعاً. انا شخصياً لا مشكلة لدي مع هواة جمع الطوابع، في الحقيقة أنا معجب بهم، مع انهم سببوا لي بعض الخسارة. لكن تلك هي القوانين ولم اكن من وضعها. بكل حال ان تبلي جيداً. بقيت لدينا ثلاثة اسئلة فقط. هل تعرّضت يوما لزلزال أقوى من ست درجات بمقياس ريختر»؟

«لم اتعرض يوماً لأي زلزال».

«ولا حتى زلزال صغير»؟

«ولا حتى زلزال صغير».

«أنت محظوظ حقاً. حتى الزلازل الصغيرة مؤذية. هل تعدّ السلالم وأنت تصعد»؟

«لا أفعل. وعادة أستخدم المصعد».

«هذا ليس خياراً صحياً. تبيَّن ان الأشخاص الذين يستخدمون السلالم للصعود يعيشون في المتوسط ثلاث سنوات وأربعة أشهر وسبعة أيام أكثر. في الجانب الآخر أُدرك أنه من الصعب رفض الخيارات المريحة. وها نحن نصل للسؤال الأخير، هل شربت مشروباً كحولياً قبل خلودك للنوم في الليلة الماضية»؟

«نعم، شربت نصف كأس من النبيذ، كما أفعل كل ليلة» قلت بتردّد

«نبيذ أبيض أم أحمر»؟

«أحمر»

سادت فترة صمت على الجانب الآخر من الخط.

«هذا ليس جيداً»؟ سألته بعد لحظات

تنهّد جامع الأحلام قبل ان يجي: «لا. ليس جيداً. القوانين صريحة بهذا الشأن. غير مسموح بقطرة من النبيذ الأحمر لأنه يعتبر منشط قوي. بعكس النبيذ الأبيض المسموح بكميات معتدلة. الأحلام التي تأتي تحت تأثير النبيذ الأحمر تُعتبر مصطنعة وليست طبيعية».

«لو كنت اعلم لما لمسته»

«لو كنتَ تعلم لكان من المشكوك فيه أن تحلم برجال اطفاء أقزام يرتدون خوذات ارجوانية».

«والآن ماذا»؟ قلتُ بعد فترة صمت

«لا شيء. كلانا خسر. انت لن تحصل على جائزتك السخيّة، وأنا خسرت حلماً رائعاً، لكن لا تفقد الأمل. كما قلت لك قبل قليل، أنت حالم موهوب. فقط تجنّب النبيذ الأحمر قبل خلودك للنوم. سأبقي عينيّ على أحلامك. وسأتصل بك مجدداً عندما يمر بها شيء ارجوانيٌّ على الرغم من احتمال مضي وقت طويل إلى أن يحدث الأمر مجدداً. لكن على الأقل لن نضطر للخوض في الأسئلة مرة اخرى. والآن، عد الى النوم. ليلة سعيدة».

«ليلة سعيدة» اجبته بعد ان أقفل الخط.

أعدت السماعة لمكانها وأطفأت المصباح. بقيتُ مستلقياً محدقاً في الحلكة التي تحيط بي إلى أن جاء صوت رنين من مسافة بعيدة. الاجراس المدوية للكنيسة وصلتْ اولاً. متبوعة بالصوت المكتوم للجرس المعلّق برقبة الكبش. سريعاً ما أصبح الصوت متصلاً مع الرنين الخافت لطفولتي. وأخيراً لم يكن يحيط بي سوى الصمت.

(6)

جامع الكلمات

يقوم السيد بلوشال بجمع الكلمات. كان يفعل هذا منذ كان عمره 56 سنة. حدث هذا بعد أن قرأ لأول مرة مختارات شعرية عن الحب. كان كتاباً ورقياً صغيراً تعلو غلافه وردة أرجوانية جميلة. وبالرغم من هذا كانت الرائحة المنبعثة من الكتاب تتعارض مع هذه الصورة. كانت تفوح منها رائحة العفن الذي يتخلل الكتب التي تقضي وقتاً طويلاً في سراديب الكتب المستعملة. ربما لم يقم السيد بلوشال بشراء الكتاب أساساً . فبالرغم من تردده الدائم على المكتبات، الا انه نادراً ما اشترى كتاباً، وعندما فعل كانت كتب تتناول مواضيع أخرى. كان يمتلك مكتبة صغيرة في منزله تتكون من الكتيِّبات. عن زراعة النباتات المنزلية مثلاً. ومع انه لم تكن لديه اية نباتات، إلا انه اعتبر نفسه خبيراً في هذا الشأن. أيضاً ابتاع كتبا تتعلق بالقطط، مع أنه لا يملك قطاً لأنه يعاني من حساسية من فروها، لكنه يملك معلومات هائلة بشأنها إذا سأله أحد عنها. كان هنالك أيضاً كتيّب عن إصلاح المجّمدة وصيانتها. صحيح انه ليس بحاجة لمجمّدة، لكن لا ضير في بعض معرفة هنا وهناك. قرر يومها شراء الكتاب الصغير بسبب الوردة الأرجوانية على الغلاف. كونه خبيراً في النباتات كان يعرف

ان لا وجود لوردة كهذه، وكان هذا هو السبب الرئيس الذي جذبه. يومها أخذ الكتاب الى امين الصندوق وهو في حالة غير مستقرة كان يشعر أنه أمر معيب لرجل في سنّه أن يبدي اهتماما بالأشعار الرومانسية. كان الأمر بالنسبة له أشبه بشراء مجلة بورنو. لحسن حظه لم تنتبه البائعة لعنوان الكتاب. كل ما فعلته هو النظر للسعر المدوَّن واستلام المبلغ المحدد منه.

بالطبع لم يعرف الكثير عن الحب. ولم تكن لديه من خبرة شخصية أيضا، لكن هل هذا ضروري؟ غالباً ما يُولَد الأشخاص بمعرفةٍ فطرية فيما يتعلّق بهذا الأمر. عندما جلس لقراءة الكتاب عاد اليه شعوره بعدم الراحة كما حدث في المكتبة، بالرغم من انه كان يجلس لوحده. وصل الأمر لأن يحمرّ وجهه خجلاً. خفّ شعوره المزعج عندما فكّر ان هذه المختارات ليست سوى كتيّب يتعلق بالحب.

من هنا بدأ يسترخي قليلاً. اندهش من حقيقة ان الكلمات سحرته اكثر مما تفعل المشاعر النبيلة. وعرف فجأة أمراً كان غائباً عن وعيه. الكلمات الجميلة موجودة. لم تكن بالضرورة كلمات نادرة او خاصة، بل كلمات عادية يمكن ملاحظتها في الكتب الأخرى. لكن لسبب او لآخر لم تكن تبدو بهذا الجمال في الكتيّبات. بالأحرى لم تلتقط عيناه جمالاً كهذا قط.

كلما قرأ أكثر شعر بخوف من أن يفقد شيئاً. عندما قلب الصفحة، شعر بأن الكلمات المكتوبة على الصفحة السابقة تبهت وتتبخر والكلمات الجديدة تحلّ محلها. لكن هذا لم يكن أمرا مُرضيا له. كان يحتاج لأن يحتفظ بالسابقات بطريقة ما. لم يكن من المنطقي ان يتركها تختفي هكذا. كان يمكنه العودة اليها بالطبع، لكنه بهذا الشكل لن يفلح يوماً في إتمام الكتاب. لا. كان يتحتم عليه ان يجد حلاً أفضل. وآنذاك وجدها.

قام بشراء دفتر ملاحظات بغلاف مصنوع من الجلد. لا شيء أفضل من هذا يمكنه ان يصبح مستودعاً لهذه الكلمات الجميلة. كيف له أن يدوّنها في دفتر عاديّ؟ سيكون هذا أقرب للتدنيس. عاد لبداية المختارات، حاملاً الكتاب أمامه. كلما مر بكلمة جميلة دوّنها بقلمه الذي لم يكن مصنوعاً من الذهب الخالص، لكن من الصعب تدبير كل شيء بشكل مثالي. كان خطّه مرتباً، ليس منمّقاً تماماً لكنه بسيط، كان جميلاً كما هو. مناسب لكتابة الكلمات الجميلة، لم يكن يطغي عليها بل يتناغم معها. كان بطبيعته يكتب بأحرف كبيرة، لكنه لهذه المناسبة كتبها بحجم أصغر، في حال كانت الكلمات الجميلة كثيرة. كان الدفتر سميكاً لكنه يجب أن يبقى منتبهاً.

لم يمتلك الشجاعة للتأكد من النتيجة إلا بعد ما أنهى كتابة الكلمات الجميلة الموجودة في كتاب المختارات. هل ستبقى على جمالها وهي مدوّنَة في دفتر الملاحظات، أم ستفقد جمالها، وتصبح كما الكتيّبات الأخرى؟ تنفس الصعداء وهو ممسك بالدفتر على مسافة منه ويتأمل الأربع صفحات الممتلئة. لم يكن جمالها كاملاً فحسب بل أصبح مضاعفاً. قد يعود السبب لكون الكلمات المدوَّنَة جميعها جميلة، ليس ان الكلمات الاخرى كانت قبيحة، لكنها لم تصل لجمال الكلمات المختارة فحسب. كان الدفتر للجمال المركَّز فقط.

بعد ان أنهى المختارات، تساءل عما يمكنه أن يفعل بعدئذ. لم يكن الدفتر حتى موشكاً على الاكتمال، بَل بدا وكانه بالكاد تم لمسه. هل يتركه هكذا؟ سيكون كما لو أنه بالكاد شظّى قليلاً من الجمال. لا، يجب عليه أن يواصل. لابد أن تكون هناك كلمات جميلة أكثر. كلها تستحق ان تكون في مكان واحد. لكن، أين يبحث عنها؟

بطبيعة الحال أول ما طرأ على باله هو كتاب آخر عن قصائد تتعلق بالحب. لم يكن ليخطئ بهذا. كان قد رأى كيف تعثر الكلمات الجميلة على تعبيرات هائلة في قصائد الحب. لكن إذا استمر على هذا المنوال في شراء ذات النوعية من الكتب سيصبح مفضوحاً. كتابان او ثلاثة قد تمر من دون ملاحظة، لكن 335!، الرقم الذي رآه في كتيّب المكتبة العامة سيثير السخرية دون شك. لا، يجب أن يجد خياراً أفضل. وهنا باغتته فكرة جديدة.

من قال أن الكلمات الجميلة توجد فقط في قصائد الحب؟ لا بد انها توجد في الكتب الأخرى. لماذا لا تكون في الكتيّبات؟ كان قد أصبح خبيراً بما فيه الكفاية لاستيعاب حقيقة عظيمة، ألا وهي أن الكلمات الجميلة تتواجد في كل مكان. البراعة لا تكمن في اختيار الكتب بل في انتقاء الكلمات. يجب أن تملك النظرة الثاقبة فحسب. كان يشعر انه يمتلك هذه الموهبة بالفعل. كانت هناك طريقة بسيطة للتحقّق من هذا. بمجرد أن التقط الكتيّب الأول وفتحه أعماه وهج الكلمات الجميلة التي تملؤه. وكان أحدهم قد ابرزها بألوان مشعة.

بصعوبة تمكن من مقاومة إغراء فتح دفتره والبدء بتدوين الكلمات فيه، منعه من ذلك حذره، وكان هذا موضع فخر له. لا ينبغي له أن يكون مندفعاً بهذا الشكل. إلى أين سيصل به الأمر؟ سيتملّكه الإرباك فوراً. يجب ان يكون منظّماً وصامداً. بعد دراسة كل الاحتمالات، قدّم الحلّ نفسه اخيراً.

عانى لبعض الوقت مع فكرة تمزيق الأربع صفحات الأولى من الدفتر لكي يبدأ مجدداً بالتدوين. لكنه تراجع عنها سريعاً. لا يمكن لمشروع كهذا ان يبدأ في دفتر مشوَّه. يجب أن يشتري دفتراً جديداً، هذا الحل فقط

سيليق به. اختار أكبر دفتر وجده، كان فيه ميزة وجدها خاصة، شريط مثبّت يمكّنه من تحديد مكان توقفه عن القراءة أو الكتابة.

كان القاموس الهائل مكوّناً من ستة عشر مجلّداً. عندما همّ بفتح المجلّد الأول التقت عيناه بسرب من الكلمات المتلألئة. حجم ما ينتظره بعد هذا لم يعد يخيفه. كان في تمام استعداده لها ولم يكن يتوقع اي اختصارات. أيّاً كان الوقت الذي سيستغرقه لكتابة الكلمات كلها، سواء كانت أكثر أو أقل. بكل حال ما بين يديه عبارة عن فرح وليس معاناة. بحق، ماذا قد يمنحه بهجة أعظم من كتابة كلمات جميلة؟

عندما أشرف عمله على الانتهاء، كان عمر السيد بلوشال أكبر بكثير من 56. لكن هذا لم يقلل من شعوره بالرضا والاكتفاء. على العكس، كم من الناس يمكنه في هكذا عمر قول أن حياته لم تذهب سدى لأنه قضاها بجمع الجمال؟ بقي أمر وحيد يجب عليه أن ينجزه، هناك مسافة كافية لكلمتين في نهاية الصفحة الأخيرة للدفتر. للمرة الأولى منذ بدأ بتكوين مجموعته أصبح يكتب بشكل خفيف، ما زال الخط بسيطاً لكنه لطيف، كما يجب أن يكون التوقيع تماماً.

ببطء قام بسحب الغطاء الخلفيّ وراءه وهو يدخل الدفتر، وكأنه يدلي غطاءً ثقيلاً.

(7)

جامع القصص

طبعت آخر كلمة من القصة، لكني لم أغرق بذلك الإحساس بالراحة الذي يتبع الانتهاء من الكتابة. قبل أن أضغط على مفتاحين في لوحة المفاتيح لحفظ الملف، تحوّلت الشاشة فجأة للون الأرجواني. كم هذا فظيع! كانت الشاشة قديمة جدا، لكني كنت أتوقع انها ستصمد لوقت اطول. لماذا عليها أن تومض الآن وتفسد لحظة سعادتي؟ ماذا بعد؟ آخر ما كنت بحاجة له هو مصاريف غير متوقعة.

في خضم احباطي اقدمتُ على امر لا معنى له. أوقفت تشغيل الشاشة، وأعدت تشغيلها بعد لحظات. هذا ما يفعله اللذين لا يعلمون شيئاً عن الأجهزة، وانا لم أكن واحداً منهم. اول ما يفعله الذين لا يعرفون شيئاً هو إيقاف تشغيل كل شيء. لماذا؟ قد يكون بسبب الإرباك، قد يكون نوعاً من التنفيس، وقد يكون ايضاً أملاً لا عقلانياً انهم عندما يعيدون تشغيلها سيعود كل شيء بخير بشكل سحري.

عندما عادت الشاشة لم يكن شيء كما كان بالطبع. كان الظل الارجواني مازال كما هو، بعد مسافة واحدة من السطر الاخير للقصة كانت هناك عبارة لم تكن موجودة، انحنيتُ قليلاً لأقرأ الإضافة:

«قصة رائعة! تهانينا»!

حدقت في الكلمات محاولاً فهم ما يجري. الاحتمال الوحيد الذي مر بتفكيري ان أحداً متصلاً بحاسوبي عبر الانترنت ويتجسس علي بينما أكتب. هناك أنواع عديدة من سوء الاستخدام في عالم الانترنت، لكن وجب علي أن أعرف أن هناك وسيلة كهذه أيضاً. سيكون أمراً فظيعاً لو كان هذا النوع من التجسس ممكناً. لكن هذه لم تكن مشكلتي الرئيسة، دون الحاجة للتأكد من الزاوية اليمنى السفلية للشاشة يمكنني تأكيد ان المتجسس لم يدخل عبر الانترنت، لأنني أساساً لم اكن متصلاً، ولم قد اكون كذلك وأنا منهمك بالكتابة؟

دفعتني الحيرة لأن اكرر ردة فعلي التي لا معنى لها. بالرغم من أنني كنت أعرف أن لن يحل شيء. بقيتْ يدي واجمة في الهواء وأنا أهم بلمس زر التشغيل مجدداً، ذلك ان المؤشر بدأ فجأة بالنزول لنهاية الصفحة من تلقاء نفسه.

«لن تصل لحل بتكرار إيقاف وإعادة تشغيل الشاشة»

قفزت مبتعداً عن الشاشة وكأني أتعرض للتهديد الجسدي. أحسست بالشَعر خلف رقبتي ينتصب، ما الذي يجري؟ كيف يعرف ما أنا مُقدم عليه؟ بدأت بالنظر بشكل محموم حولي، لكن رسالة جديدة أوقفتني.

«ليست هناك كاميرا، إن كان هذا هو ما تبحث عنه».

كنت بحاجة لكمٍّ هائل من ضبط النفس للتوقف عن إعادة تشغيل الحاسوب. لأنني إن فعلت ذلك فسأفقد القصة التي إلى الآن لم أقم بحفظها في الجهاز، لذلك يجب تجنب هذا الأمر بأي ثمن. قرّبت

اصابعي من لوحة المفاتيح بحذر، وكانه سيقوم بعضّي. ضغطتُ على المفتاحَين بخفّة ثم بسرعة رفعت أصابعي. لكن الإشعار الذي يظهر عادةً لتأكيد الحفظ لم يخرج هذه المرة، مكانها ظهرت عبارة طويلة بحروف مائلة:

«كل شيء على ما يرام. القصة تم حفظها لا تقلق. بالطبع لا يمكننا ترك قصة جيدة كهذه تذهب سدى، أليس كذلك»؟

بقيتُ محدقاً لفترة للأسطر المكتوبة تحت آخر فقرة في القصة. عندما اقتربتْ أصابعي من لوحة المفاتيح، كنت أعلم أنني أتورط في أمر مراوِغ. لكن أي خيار كنت املك؟

«من أنت»؟

«جامع للقصص الأخيرة»

بالطبع كانت هناك أسئلة ضرورية اكثر، لكن كل ما استطعت كتابته هو: «الأخيرة»؟

«نعم. هذه قصتك الأخيرة. وربما الأفضل، وهذا أمر نادر الحدوث بالمناسبة».

توقفتُ لفترة وجيزة قبل أن ألمس لوحة المفاتيح مجدداً.

«لماذا قد تكون الأخيرة»؟

«أليس الأمر واضحاً بعد؟ لأنك لن تتمكن من الكتابة بعد الآن».

كل هذا يبدو جنوناً بحتاً، لكن بما اني كنت محاصراً، اضطررت لأن أواصل.

«ولماذا لن أكتب مجدداً؟ من سيمنعني»؟

«أنت ستمنع نفسك. على الأقل أتمنى ان تفعل».

«ولماذا أُقدم على أمر كهذا»؟

«لأنك إن لم تفعل ستموت»

حلّ الهياج مكان الإرباك، طبعتْ أصابعي بغضب عارم:

«اسمع يا هذا، لا أعلم كيف تفعل هذا ولا يهمني، لقد اكتفيت، ولن أسمح لك بالسخرية مني بهذا الشكل».

«لم تقم بزيارة الطبيب منذ فترة، أ ليس كذلك؟ قد تكون فكرة جيدة أن تجد وقتاً لذلك. إلى متى ستتظاهر أن الغرزة التي بصدرك لا تتحسن»؟

لم أجبه مباشرة، رفعت يدي لصدري دون وعي.

«كيف تعرف عن هذا الأمر؟ أنا لم أخبر أحداً»

«هل هذا سؤال ضروري حقاً؟ أنت للتو قمت بتأكيد الأمر بنفسك».

«تمنيت أن لا يكون أمراً خطيراً، ربما يجب أن أذهب للطبيب»

«لن يكون بمقدور الطبيب تقديم مساعدة كبيرة لك إن لم تساعد نفسك»

«بالتوقف عن الكتابة»؟

«نعم. قصّتك القادمة يجب أن تكون فتاكة، ستموت بأزمة قلبية تماماً كما كتبتها في بداية القصة»

فكرت أن أسأله مجدداً عن كيفية معرفته بكل هذه التفاصيل. لكني استسلمت، فعلاً لم يكن الأمر مهماً.

«وإن لم اكتب مجدداً»؟

«في هذه الحالة سيصبح عمرك مديداً. الآلام في صدرك ستختفي من تلقاء نفسها. سيعطيك طبيبك شهادة خلوّك من الأمراض».

فكرت بالأمر قليلاً.

«الأمر اذن محصور بخيارين، أن احيا حياة دون كتابة والكتابة ستوصلني للموت»؟

«نعم، القرار لك»

ترددت لفترة وجيزة مرة أخرى.

«هذا ليس بخَيار منصف»

«إنه ليس كذلك، لكنه أفضل من العيش من دون أي خيار»

«ولماذا استحققتُ هذه المعاملة الخاصة؟«كنتُ أعلم ماذا ستكون الإجابة وأنا أكتب هذا السؤال.

«هل هذا مهم»؟

«ماذا سيحدث لو عدتُ للكتابة بعد أن يؤكد الطبيب أني بخير»؟

«لن تنفذ بجلدك. حتى أكثر الناس سعادة وصحة يموتون فجأة. ليس هناك مجال للغش هنا. انت قمت بكتابة قصتك الأخيرة».

تنهدت وأنا أقرص جسر أنفي بسبابتي وإبهامي لأن نبضاً غريباً بدا في هذه المنطقة.

«هل لديك الكثير من القصص الأخيرة في مجموعتك»؟

«نعم. الكثير».

«هل واجه كتّابها نفس الخيارين»؟

«نعم»

«أيهما قاموا باختياره»؟

«غالبهم أختار الحياة والعمر المديد، تحديداً لأنه ليس هناك من بديل. هناك بالرغم من ذلك من لا يستطيع أن يحيا دون كتابة. هؤلاء يواصلون مع علمهم بما ينتظرهم».

«يمكنني تفهم ذلك»

«هل يعني هذا أنك تود الانضمام لهم»؟

«لا أعلم. يجب أن أفكر ملياً. القرار ليس سهلاً»

«إنه ليس كذلك. في كل حال، وكيفما يكون قرارك، أعتقد أنك ستفرح وأنا أؤكد لك ان قصتك واحدة من أجمل القصص في مجموعتي. أتمنى أن يكون في هذا شيء من العزاء لك».

ضحكتُ بمرارة : «أشعر بتحسّن فعلاً»

«جيد. هذا كل ما لدي الى الآن. تشرفت بالحصول على فرصة للتحدث مع كاتب رائع مثلك».

كنت ألمس لوحة مفاتيح لكن لم تكن هناك فرصة لإرسال توديع لائق. محادثتنا تم تظليلها فجأة باللون الأسود ثم اختفت. المسحة الأرجوانية ذهبت معها أيضاً. ولم يتبق سوى الصفحة البيضاء وهي تحدق

بي ببلاغة فارغة. بادلتها التحديق، بينما ما زالت أصابعي مسترخية على لوحة المفاتيح، بدأتْ بالطباعة من تلقاء نفسها:

«كتبتُ آخر عبارة من القصة. لكن لم يكن هناك وقت للغرق في ذلك الشعور المميز الذي يعتريني عندما أنتهي من الكتابة. قبل أن أتمكن من الضغط على مفتاحَين لحفظ الملف. تحولت الشاشة للون الأرجواني».

لم أملك الوقت الكافي لإنزال المؤشر لكتابة سطر جديد. ألم حاد أجبرني أن أضغط بيأس على صدري.

(8)

جامع القصاصات

كان السيد بوسبيهال يجمع القصاصات. بقي يجمعها منذ بلغ الثانية والستين من العمر عندما أحيل للتقاعد. عمل طوال عمره في مكتب البريد، تمت ترقيته من ساعي بريد إلى مدير. علّمه عمله هذا احترام الترتيب قبل أي شيء آخر. كان رجلاً منظّماً بالفطرة. لكن عمله في البريد ضاعف من اهتمامه بتجنّب اي نوع من الفوضى. حتى الانحراف البريء عن بعض القوانين البسيطة كانت له عواقب وخيمة. كان مأخوذاً بالحفاظ على النظام، حتى قبل ان يصبح مديراً يتأخر في العمل الى ما بعد أوقات الدوام الرسمي. كان هناك الكثير من التحضيرات التي يجب القيام بها قبل بدء يوم العمل العادي، وعندما ينقضي كانت هناك العديد من الأمور المتروكة دون اهتمام. إن لم يكن أخذ على عاتقه الاعتناء بها لم يكن ليصل لمنصب مدير، وهذه الترقية لم تجعله أقل عناداً. كان يصل قبل الموظفين ويغادر بعدهم بوقت طويل. كان قبل هذا مسؤولاً عن نفسه فقط، لكنه وهو مدير أصبح مسؤولاً عن عدد من الموظفين.

هذا الالتزام الصارم في عمله لم يترك له وقتاً كافياً لحياته الخاصة. لم ينشئ السيد بوسبيهال عائلة، مع أنه كان يتمنى هذا عندما كان شاباً،

لكن هذه الرغبة تلاشت بعد ذلك. بل كان يرى في عدم الزواج والإنجاب ميزة، فهو ضحى بنفسه في سبيل تحقيق فضيلة أعظم. سيكون من الصعب أن تبقى ساعي بريد ناجحاً، ما بالك بمدير. العائلة والتزاماتها ستعيقه حتماً، هذا ما يؤكده بعض زملائه الذين لم يكونوا يؤدون عملهم كما يفعل هو بإتقان وأمانة.

عندما تقاعد السيد بوسبيهال كان يشعر وكأنه يتلقى ضربة مزدوجة. اولاً، لم يكن متأكداً انه يترك مكتب البريد في أيدٍ أمينة. انطباعه لم يكن جيداً عن المدير الذي تسلم منصبه من بعده. بمجرد ان تسلم المنصب قام بإلغاء القوانين غير الرسمية التي وضعها السيد بوسبيهال، خاصة التي تتعلق بطول الشعر والشارب المسموح به للموظفين، ومنعهم من ارتداء القمصان ذوات الأكمام القصيرة مهما بلغت درجة الحرارة.

كان قد كتب رسالة مفصّلة الى المدير الجديد، رسالة مهذبة لكنها صارمة، يخبره فيها عن قلقه من هذا التساهل وعواقبه البعيدة التي قد تنتج بسبب هذا الأمر. زاد من كآبته وقلقه عدم رد المدير على رسالته على الرغم من مرور وقت طويل.

الضربة الثانية كانت أشد وقعاً عليه. اصبح الآن لديه وفرة من الوقت الذي استمر في تجنّبه بينما كان يعمل. كانت الأيام الاولى أصعبها، تمر ببطء ولا تُحتمل، وبما انه لم يعرف فيم يقضيها كانت طويلة جداً، إلى أن أتته فكرة مدهشة تعينه على قتل الوقت. سيقرأ الصحف.

كان السيد بوسبيهال يقرا الصحف عندما كان موظفاً، لكنه كان يقرأها بطريقة خاطفة بعد عودته من العمل. كان يقرأ ذات الصحيفة الجادة منذ

كان شاباً. يفتحها بعد أن ينهي عشاءه وقبل خلوده للنوم. لم يتمكن من القراءة بشكل جاد بسبب الإنهاك. كان يكتفي بقراءة العناوين الرئيسية في الصفحة الأولى فحسب. وبعض الأحيان يقرأ مقالاً من نفس الصفحة إذا بدا له الموضوع مهماً، ومن ثم يسرقه النوم، ذلك أنه يجب أن يستيقظ باكراً في اليوم التالي.

أما الآن فقد أصبح أخيراً بمقدوره ان يقرأ الصحيفة في وقت فراغه وعندما لم يكن يشعر بالنعاس. كان مباشرة بعد تناول الإفطار يجلس على المقعد الوحيد الموجود في غرفة معيشته الصغيرة وصولا إلى وقت الظهر، منهمكاً في قراءة الصحيفة من الصفحة الأولى إلى الأخيرة. وبسبب طبيعته المنظّمة لم يهمل شيئاً. علاوة على ذلك، اكتشف ان صفحات الإعلانات والنعي تبدو ممتعة اكثر من أخبار الصفحة الأولى. في ظل هذا الوضع كان لابد للسيد بوسبيهال أن يصادف الصفحة العلمية والتي تُنشر كل جمعة في النصف الثاني من الصحيفة وتأتي بعد الصفحة الثقافية وقبل الصفحة الرياضية. لم يلفت انتباهه القسم العلمي منذ البداية، حقيقة علمية واحدة قرأها في هذا القسم جعلته مهتماً: أن الإنسان مخلوق من مادة كونيّة.

لم يعرف الكثير عن الامور العلمية، على الرغم من تقديره العميق لها. أبعدته عنها المصطلحات المعقّدة التي يتم استخدامها، إضافة للأفكار الأكثر تعقيداً. يبدو ان كاتب هذا المقال تعذّب كثيرا ليتفادى استخدام تلك المصطلحات واستبدالها بأخرى أسهل، مما جعل الفكرة مفهومة بكلمات غير معقّدة بالرغم من كونها غير مألوفة تماماً. بإيجاز، تقول الفكرة ان هناك مكاناً في الكون وحده مصدر كل الذرّات التي خُلقت منها

الكائنات الحية. هذا المكان هو مركز شموس هائلة. وبذلك نستنتج ان الإنسان مخلوق من النجوم.

عزّز هذا المقال من تقدير السيد بروسبيهال لذاته، عليه قام باستقطاعها من الصحيفة وقرر أن يحتفظ بها كأمر متعلّق بالنسب، عندما راودته فكرة تأطير المقال شعر انه يبالغ في الامر. عزم على أن يضع القصاصة في مجلّد أرجواني شفاف كتلك التي كان يستخدمها في العمل للاحتفاظ بالأوراق المهمة والخاصة. هكذا يمكنه أن يعود لقراءتها وقتما يشاء دون الإضرار بها.

كان ينتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر ليرى إن كانوا سيتطرقون للموضوع نفسه مجدداً، لكن خاب ظنه عندما وجد مقالاً يتطرق لموضوع آخر. وبالرغم من ذلك جذبته المقالة الجديدة، شعر أنه يتوغل في تلك الثقوب السوداء الغامضة، كل شيء واضح ومتماسك ومفهوم، لم يعد هناك أي لِبس، احتفظ بالمقال في مجلّد أرجواني شفاف آخر.

عندما كبرت مجموعة السيد بوسبيهال قليلاً، عرف سبب حبه الكبير للمواد العلمية، إنه سيادة النظام. بخلاف الانشطة البشرية، حيث الميل للفوضى واضح، كان عالَم العِلم منتظم بامتياز. لو كان يعرف بهذا لكان حتماً اختار أن يصبح عالِماً وليس موظفاً في مكتب البريد. لكان سيذهب إلى أبعد من ذلك.

من يعلم كم استمتع السيد بوسبيهال بحياته ومجموعته، إن لم تكن تلك المقالة التي تحمل رقم 137. عندما قرأها كانت صدمته كبيرة بحيث زلزلتْ مبادئ حياته الاساسية. كان قلبه ينبض بقوة ولدقيقة شعر بأنفاسه

تضيق، احتاج لأخذ عقار مسكن واستجماع شجاعته لإعادة قراءة هذا المقال الذي يتناول نهاية العالم.

المؤلف الذي بقي يتابعه طوال هذا الوقت، المؤلف الذي وثق بخبرته وكفاءته يضع الآن أمامه أمراً صادماً وغير قابل للتصديق كهذا. يدّعي أن الكون سيرتطم بنهاية فظيعة خلال 120 سنة ولن تبقى خلال بليون سنة قادمة أية مجرات أو نجوم او كواكب أو حتى بشر. لن تكون هناك سوى جسيمات أولية تتجول دون هدى أو هدف، وهي ايضاً ستختفي من الوجود.

بعد أن هدأ قليلاً، كتب السيد بوسبيهال رسالة غاضبة إلى محرر الصفحة العلمية، يتهمه بشكل مباشر بنشر معلومات علمية غير مسؤولة ومقلقة، هل هذه طريقة ينتهي بها العالم؟ كيف لمنظومة خارقة كهذه أن تنتهي بشكل فوضوي كهذا؟ هذه خيانة عظمى للعِلم!

هل فكر المؤلف جيداً فيما يقوله؟ إن كان ما يقوله حقيقياً، وكل شيء إلى زوال، ما الفائدة من المبادرة بفعل أي شيء؟ لا يمكن لهذا ان يحدث طبعاً. لم يعمل بجهد في مكتب البريد طوال عمره ليتحول نهاية الأمر إلى جسيمات متشظّية، وقد يكون أسوأ من ذلك.

كان يتوقع استلام رد فوري يحوي اعتذاراً من رئيس التحرير، وأن يكون الفصل الفوري للمحرر العلمي أمراً مفروغاً منه. وكتعويض يطلب منه ان يقوم هو بكتابة المقالات العلمية بدلاً عنه في المستقبل. كان بالفعل قد اصبح خبيراً وسهو كهذا لن يصل إليه يوماً، كان يعرف جيداً معنى النظام. في الأيام التالية واضب السيد بوسبيهال على التحقّق من

خانة المحررين في الصحيفة، بما ان رسالة الاعتذار لم تصل من رئيس التحرير، وخلص إلى أن مجلس ادارة التحرير كان يحاول إخماد الفضيحة بدلاً من جعلها قضية عامة. قد يرسلون إليه رسالة سرية لإسكاته. ربما يحاولون في البداية إقناعه، وإن لم ينفع ذلك قد يحاولون رشوته أو حتى تهديده. لكنه لن يرضخ. لو كان امراً أقل أهمية لكان غض البصر عنه، لكن كان هذا امر يتعلق بأوسع النسب الكونية، ليس من حقه التراجع الآن.

بعد انقضاء عدة أسابيع من دون أن يستلم أي رد، أصبح السيد بوسبيهال على قناعة من ان هناك مؤامرة كانت تُحاك، وللأسف، لن يستطيع فعل شيء لمنع ذلك لوحده. الفوضى حلّت محل النظام، وهو بلا حول ولا قوة مضطر لأن يشاهد هذا يحدث ولن يتمكن من فعل شيء.

في خضم غرقه في الإحباط، أول شيء قام به هو تدمير مجموعته. وكما هو حال كل شيء في حياته، قام بفعل هذا بشكل منظّم. أخذ مقصاً كبيراً،وقام بقص جميع المقالات الى قطع صغيرة بنفس الحجم. ثم، ولأول مرة في حياته، أقدم على أمر غير معقول. قام بالتهام هذه الحلوى المغلّفة بالبلاستيك الأرجواني الشفاف ببطء وإصرار، بالرغم من ان طعمها كان مريعاً. بعدئذ جلس على مقعده منتظراً الآتي.

لم يتفاجأ عندما شعر بأن جسده بدأ بالتحلّل. كان يتلّقى ذلك بفضول منحرف، وكأن الأمر يحدث لسواه، استمر في مشاهدة نفسه وهو يتحلّلْ، تلك الجزيئات المتصلة ببعض التي تملأ جسمه، تلك التي كانت مسألة كونية بدأت بالتكسر والتشظي بفوضوية في انحاء الغرفة. قريباً، خلال مائة بليون سنة أو نحو ذلك، هي أيضاً ستختفي للأبد.

(9)

جامع الوفيّات

كنت موشكاً على النوم عندما أيقظني طرق على الباب. بغضب نظرت نحو باب غرفة المستشفى. من يمكن ان يكون بهذا الوقت؟ أ لم نتفق أن لا يأتوا قبل الصباح؟ أ لا يستطيع الشخص أن يموت بسلام؟ كلهم يعلمون أنه لا يمكن فعل أكثر مما تم فعله. وبصفتي طبيبا من ذوي الخبرة الكافية، أخذتُ مسكناً قوياً يساعدني على النوم بأسرع وقت. أن أموت وأنا نائم هو أفضل ما اكافئ نفسي به، لماذا يحرمونني منه.

«تفضّل» قلتُ بالحِدَّة التي سمحت لي بها حالتي.

كان الرجل الذي دخل طويلاً ونحيلاً، يرتدي معطفاً أرجوانيا طويلاً، يتناقض بلونه الذي يحمل البهجة مع كونه يتعدى منتصف العمر، الأخضر الزيتوني او الرمادي يليق بوجهه المليء بالتجاعيد الناعمة وشعره الذي يشبه مزيج الملح والفلفل، لكن كل هذا ليس ذا أهمية الآن.

«مساء الخير» قالها من دون أن ينتظر رداً توجّه إلى المقعد المجاور لوسادتي.جلس وعقد ذراعيه أمامه وهو ينظر لي بصمت. بقينا دقائق ننظر لبعض فقط، كنتُ من كسر هذا الصمت أخيراً وأنا أقول: «أ لا ترى أن الوقت متأخر بعض الشيء لزيارة مريض»؟

«سيكون كذلك بعد دقائق. حالياً، وإلى أن تخلد للنوم ما زال هناك وقت».

«وقت لماذا؟ من أنت؟ كيف دخلت المستشفى بهذا الوقت»؟

«بأي ترتيب تريد الإجابات؟ فلنبدأ من سؤالك الأخير، لأنه الأسهل. استطعت الدخول للمستشفى لأن لا أحد منعني ببساطة».

«ألم يكن رجل الأمن موجوداً»؟

«كان هناك، لكنه لم يرني»

«كيف ذلك؟ هل أنت كائن لا مرئي أو ما شبه»؟

«يمكنك ان تقول ذلك».

تنهّدتُ: «حسناً لا تبدو لي كذلك، ماذا تريد»؟

لم يجبني زائري مباشرة، مجدداً وضع بيننا فترة وجيزة من الصمت.

«موتك». قالها بنبرة ثابتة.

كان الآن دوري لأحدق به بصمت.

«اسمع، لا أعرف من تكون ولا كيف استطعت الدخول الى هنا. لا فرق بالنسبة لي. لكن إن لم تغادر هذه اللحظة، سأتصل بهم ليرموك في الخارج»

أقترح عليك أن تفعل ذلك»

ترددت قليلاً، ثم مددتُ يدي لأصل للجرس الموضوع على الطاولة قربي. ضغطتُ عليها لفترة أطول مما ينبغي.، كان يمكنني سماع وقع

خطوات الممرضة السريعة عبر الممر المؤدي لغرفتي. لم أنطق بحرف عندما دخلتْ الغرفة. كان كافياً ان أنظر للمقعد الموجود قرب سريري لتفسير أمر استدعائي لها. لكنها هرعت إلي وكأن لا مخلوق سواي بالغرفة.

«كيف حالك؟» سألتني بلطف.

نظرتُ إليها باضطراب، لم أعرف بم أجيبها.

«لا أستطيع النوم» كانت هذه العبارة كل ما استطعت النطق به اخيراً.

ربتتْ على ظهر يدي: «ستخلد للنوم قريباً. لا تقلق. تم إعطاؤك مسكّناً قوياً» احتجت لجهد لأتمكن من التبسّم بشكل عابر لها : «شكراً»

«انا هنا إن احتجت لأي شيء، كل ما عليك فعله هو رنّ الجرس»

«شكراً لكِ»

ردت عليّ بابتسامة ورتّبت غطاء السرير قليلاً وتوجّهت للباب، توقفت هناك للحظة وكأنها ستستدير، لكنها لم تفعل.

انتظرت الى ان تبتعد خطواتها قبل أن أعود للنظر لزائري: «من انت»؟ سألته بصوت هادئ

«جامع الموت» قالها بصوت ثابت وكأنه يقول امراً شائعاً.

«جامع الموت»؟ كررت قوله كالأحمق

«نعم. انا أجمع الوفيات. الأمر ليس غير مألوف لهذه الدرجة التي تبدو عليها. هناك الأغرب من هذا. إن منحتني موتك، ستحصل بالمقابل على شيء لا يقدَّر بثمن».

«وكيف يمكنني منحك موتي»؟

«الأمر سهل. كل ما عليك فعله هو إعطائي موافقتك»

«هذا كل شيء»؟

«نعم».

«ولن أموت مجدداً»؟

«لن تموت»

«وسأحصل على شيء في المقابل»؟

«حتماً»

توقّفتُ لفترة: «ماذا»؟

هو أيضا انتظر قليلاً قبل ان يجيب: «إن كنت لتختار اجمل يوم في حياتك، أي يوم سيكون»؟

«هذا سؤال صعب. احتاج لأن أفكر بالموضوع».

«لا تملك الكثير من الوقت للتفكير. لابد ان يكون هناك يوم مميزاً تتذكره لأنه استثنائي. يوم شعرتَ فيه انك سعيد بشكل خاص»

«بالطبع، هناك أيام عديدة بهذا الوصف. لكن ما اهمية هذا الآن؟ انها ايام انتهتْ للأبد».

«يمكن لإحداها أن تعود»

«كيف»؟

«يمكنني ان أجيبك، لكن الشرح سيأخذ وقتا وهذا المسكّن سيفعل فعله بأي لحظة وستغرق في النوم. يجب أن تكون سريعاً»

«بأي طريقة ستعود؟ أنا لا أفهم».

«بطريقة تجعلك تعيش هذا اليوم مجدداً كما عشته المرة الأولى. لن تكون على علم بما ستكون عليه حياتك بعده، وكأن الأمر لم يحدث أبداً»

فكرت في الموضوع بشكل سريع: «وفي نهاية ذلك اليوم سأموت»؟

«لا. انت لن تموت أبداً، سيكون موتك في مجموعتي»

«هل سأواصل بعدها الحياة بشكل عادي»؟

«لا. سيتكرر نفس اليوم الجميل مجدداً وبشكل مستمر إلى الأبد. إذاً، هل توافق على هذه الصفقة التي تمنحك الخلود مقابل موتك»؟

كان تأثير المسكن بدأ بالظهور. كنت اجتهد لإبقاء عينيّ مفتوحتين.

«ولم أرفض؟ أي شخص في وضعي سيوافق»

اتّسعتْ ابتسامة الزائر: «هذا رائع» قال بصوت فاتر «يعني هذا موافقتك على عقد الصفقة»

«نعم. إنها صفقة» أجبته بصوت منخفض وعينين شبه مغمضتين.

بقيت ابتسامته تحتلّ وجهه لفترة أطول. لكن عندما عاد للتحدث أصبح صوته بعيداً كما كان. «هل تعلم؟ لا يقبل الجميع عرضي هذا»

«من يختار الموت عندما يُعرض عليه الخلود؟ خاصة وان هذا الخلود مملوء بيوم جميل»؟ سالته بصوت أشبه بالهمس وأنا أغلق عيني أخيراً.

شعرتُ بجوابه هذه المرة وكانه آتٍ من مكان بعيد: «الخلود يستمر وقتاً طويلاً جداً، حتى عندما يكون مجرد صفقة. مع ذلك، أتمنى أن تستمتع به».

موجة من الخوف انتابتْ وعيي المتلاشي. احسستُ أن أمراً غامضاً يحدث، لكني لم أعرف ما هو. ثم لم يعد الامر مهماً. بدأت بالاستيقاظ، كنت أشعر بفرحة كبيرة غير متوقعة. شيء جميل جداً كان ينتظرني ذلك اليوم.

(10)

جامع البريد الالكتروني

كان السيد بافيك جامعاً لرسائل البريد الالكتروني منذ تقاعده وهو بعمر الخامسة والستين. لم يتمكن من ذلك قبلها لأنه لم يملك حاسوباً في منزله. عندما غادر اخيراً عمله في أرشيف الدولة بعد أربعة عقود من الخدمة المتفانية، تم منحه الحاسوب الذي استخدمه لثلاثة عشر سنة ونصف بمثابة عربون امتنان. كان مبعث رضاه أنه معتاد على هذا الحاسوب، بعكس الأجهزة الجديدة، التي لن تجلب له سوى المزيد من التعقيد. لم يكن لينسجم مع غيره، مع أنه استغرق وقتاً أكثر من زملائه للتعلّم على استخدام هذا الجهاز العنيد الذي بدا وكأنه عازم على عدم الاستجابة لطلباته أبداً.

كان قد مرّ بتجارب متعِبة خلال التدرُّب على استخدامه، كل جهوده كانت تقابلها الأخطاء بسبب هذا الجهاز: مرة تسبَّب بحريق ومرة أخرى أصيب بانهيار عصبيّ. لكنه أخيراً، بعد انقضاء أكثر من سنتين وشهرين، أصبح بإمكانه القول بفخر أنه نجح في إخضاع الحاسوب، هذا فيما يتعلق على الأقل ببرنامج الارشيف.

كان زملاؤه يستخدمون برامج أخرى كثيرة لا تتعلق بطبيعة عملهم، لكنه لم يخطر يوماً على باله ان يفعل الشيء نفسه. لو سأله أحد عن سبب امتناعه لأجاب بأنه لا يوافق على إساءة كهذه لوقت العمل والاجهزة العائدة للدولة. لكن وبما أن أحداً لم يسأله يوماً، لم يكن هناك من داعٍ لخداع الذات، حقيقة هو لم يستخدم البرامج الأخرى لأنه كان يشعر بالرهبة منها.

عندما أحضر حاسوبه للمنزل، كان الخوف يرافقهما. بما أنه لن يستخدم البرنامج الوحيد الذي يعرف كيفية التعامل معه. يجب عليه تعلّم برامج أخرى، أي التعرض لذات الصدمة مجدداً. يمكنه بالطبع أن يتجنب كل هذا بان لا يستخدم الجهاز مطلقاً، وهو ما فعله بداية الأمر. وضع الجهاز في زاوية وغطاه بقطعة قماش ارجواني. سريعاً بدا له هذا التصرف إهداراً غير ضروري، وعليه، تصالح مع الأمر الذي يبدو أن لا مفر منه. كانت معضلته الأولى هي أي برنامج يختار. العاب الكمبيوتر التي كان يلعبها زملاؤه لم تكن واردة، لم يتصور ان هناك إهداراً بشكل غير مسؤول كهذا للوقت، حتى وهو محال للتقاعد.

أفضل شيء هو أن يتعلم شيئاً مفيداً. لكن ماذا؟ يستخدم الكثير من الناس الحاسوب آلة كاتبة، لكن ماذا يكتب؟

من يعلم كم كان ليأخذ من الوقت وهو يفكّر فيما يفعل بهذا الحاسوب إن لم يلمح الإعلان المنشور في الصحيفة الذي يتحدث عن مزايا الأنترنت، في حال كنتَ باحثاً عن وظيفة. السيد بافيك كان يعرف أن الأنترنت واسع الانتشار ورأى حماس الناس بشأنه، لكنه تجنبه لنفس السبب الذي جعله يتجنب تعلّم البرامج الأخرى. أما الآن، فلا سبيل لديه

للهروب من الأمر، يجب عليه ان يتغلب على خوفه.كانت هناك مفاجأة جميلة بانتظاره: تبين له ان استخدام الانترنت لم يكن بالصعوبة التي توقّعها. لم يكن هناك انهيار عصبي ولا حتى صدمة مستمرة، لمرّتين اعتقد انه سيعود لدخول الدوامة نفسها، لكنه خرج منها سريعا بسبب إتباعه التعليمات بعناية. تم تهيئة كل شيء للاستخدام السهل وغير المعقَّد.

كان توصيل الانترنت بمثابة فتح نافذة على عالم شاسع يحوي احتمالات مختلفة كثيرة. أصبح من الواضح سريعاً أن السيد بافيك لم يعد يعاني من الفراغ، كان العمل آتياً للبحث عنه. بمجرد توصيله لخدمة الانترنت بدأ بتلقّي رسائل بريد الكترونية، على الرغم من انه لم يعرف أياً من مرسليها او كيف عرفوا عنوانه البريدي. مع هذا كان مسروراً، فالسيد بافيك لم يتلقّ رسائل كثيرة في حياته، والآن كلما ألقى نظرة على بريده يجد عدداً من الرسائل تنتظر فتحها.

كان بريده الوارد يحوي رسائل لعروض تجارية لم تكن تهمّه. كانت تلك التي تجعله يحمرّ خجلاً هي الأكثر عدداً. بالفعل، من كان يظن أن رجلاً في سنّه يحتاج لإطالة أعضاء معيّنة او لاستخدام منتجات تطيل الأوقات الحميمية؟ لكنه بالرغم من ذلك لم يحقد على أصحاب هذه الرسائل، دون شك نواياهم نبيلة. كيف يمكنك لوم أناس يحاولون ملء حياتك بالسعادة، بغض النظر عن استحالة الأمر؟

بمجرد أن بدأ السيد بافيك بقراءة أول رسالة، بدأت غريزة المؤرشِف فيه بالعمل، يعرف جيداً مصير المستندات التي تُترَك من دون تسجيل كما هو معلوم.كان هذا أمرا أساسيا في عمله.

الأشياء تضيع في لمح البصر وتُفقَد إن لم يتم إدخالها في النظام مباشرة، ولا نعلم كم قد تكون هذه الوثائق مهمة. أ لم يحدث سابقاً أن تم اعتبار اوراق ما غير مهمة واكتشف انها تحمل أهمية عظيمة؟ كثير من الناس فشلوا في إدراك أن التوثيق هو أساس كل مجتمع منظَّم. قام بتعديل برنامج الأرشيف قليلاً ليتسنى له حفظ جميع الرسائل. وضع لكل رسالة رقما تسلسلياً وتصنيفاً. ميزة الاختصار أفادته كثيراً، فبدلاً من ان يكتب «عرض حميمي» والذي سيجعله يشعر بشيء من الإرباك، يمكنه أن يعنونه بـ «ع. ح». ، بدا له هذا التصنيف أكثر احتراماً ومهنية.

وبعد الانتهاء من تسجيل الرسائل كان لابد من الرد عليها، من اللباقة أن يفعل، وإلا ماذا سيظن من أرسلها لو لم يتلقَّ ردّاً لائقاً؟ يمكن ملاحظة الحساسية المفرطة والانطوائية التي يتصف بها السيد بافيك، وكونه مخلوقاً لا يستغني عن عاداته، لكن أبداً لم يكن ليتخلّى عن لباقته.

كانت ردوده رسمية وقصيرة، ككل المراسلات التي تتم مع أشخاص لا يعرفهم. لم يتعمّق في تفاصيل طويلة عن سبب عدم رغبته في ما يعرضونه. قام فقط بشكرهم، مع ترك مجال لإمكانية تغيير رأيه في يوم ما مستقبلاً، ليختتم ردوده بتحية رسمية. كل شيء كان يسير بشكل مثالي.

على الرغم من أنه لم ير أي علاقة لهذا بالأمر، إلا أنه استغرب من تلقّيه للمزيد والمزيد من الرسائل كلما أرسل رداً على رسالة ما. بعد مضيّ اسبوعين فحسب على توصيله لخدمة الانترنت كان يشعر بالإنهاك من العمل المتواصل. لم يكن بريدة ليتوقف عن تلقّي المزيد من العروض وبذلك زادت الساعات التي كان يقضيها في تسجيل كل منها في الارشيف والرد عليها.

تسارعت ردوده عندما تذكّر انه غير مضطر لكتابة كل رسالة على حدة، عندما كان في العمل كان قد تعلّم إحدى الميزات التي تقدمها الحاسبات، لم يكن يعتقد أنها ستكون مفيدة لهذه الدرجة، وعليه لم يستخدمها يوماً، لكن الآن أصبح يدرك كم هي مفيدة. بمجرد أن ينهي كتابة رسالة، يمكنه ببساطة ان ينسخها ويلصقها بمكان آخر، وردوده كانت دائماً تقريبا هي نفسها. ومع هذا لم يفعل الأمر بطريقة ميكانيكية، كانت دوماً هناك بعض التغييرات الطفيفة هنا وهناك ليرضي ضميره. لم يرد ان يشعر أنه لا يعطي عمله حقّه. كان بإمكان تغيير بسيط في كل رسالة أن يجعلها مستقلّة، ترتيب الكلمات، إضافة أو حذف صفة ما، مكان التوقيع.

سرعته في الرد على الرسائل لم تخفف من ورودها، بل جعلتها تتدفق كما السيل. عندما كان يعمل، كان أحيانا يضطر للبقاء في العمل إلى ما بعد الساعات الرسمية للدوام خاصة عندما يصبح ضغط العمل كبيراً ويحتاج لجهد إضافي. لكن ذلك لا يُقارَن بما ينهمر عليه الآن. المئات من الرسائل تتدفق على بريده الوارد كلما فتحه. مع ذلك، لم تكن هذه المراسلات مشقّة كبيرة بالنسبة للسيد بافيك لأنه لم يكن ليعرف كيف يقضي وقت فراغه لولاها. فهو لم يعرف يوماً البلادَة. أما الآن فهو يقضي جلّ وقته وهو يعمل، بل أنه قلل من ساعات نومه إلى 4 ساعات ونصف فقط، لكن إن كان هذا هو الثمن الذي يجب عليه دفعه ليملأ حياته بشيء، فليكن.

لم يكن يقلقه التساؤل عما إذا كان لهذا العمل أي معنى. كما لم يفعل عندما كان يعمل في ارشيف الدولة. لم يكن سوى غير المتعلّمين والمغرورين هم من في حاجة لمعرفة أهمية التوثيق؛ كان الأمر جليّاً

حتى للذين لديهم نسبة بسيطة من الذكاء. على الرغم من انه لم يكن ليرفق بنفسه، ويجبرها على الاجتهاد في العمل بما يفوق المتوقّع، إلا أن الحاسوب كان بحاجة لبعض الاهتمام. بعكسه، كان الحاسوب ذا قدراتٍ محدودة، بقي صامداً لثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً منذ أن بدأ بتسجيل البريد الوارد وبالتالي أصبحت ذاكرة القرص الصلب ممتلئة. لو كان أُعطي حاسوباً جديداً عند تقاعده لما ظهرت مشكلة كهذه بهذه السرعة. لكن المساحة المتوفرة في هذا القرص القديم محدودة جداً.

كان السيد بافيك يشعر بانه محشور في وضع لا مخرج منه. لو كان راتبه التقاعدي اكبر لكان اشترى قرصاً صلباً جديداً، لكنه بالكاد يتمكن من تغطية نفقاته إلى نهاية الشهر. النفقات الإضافية كانت غير واردة، والبريد الوارد كان يعج بالرسائل التي لا تتوقف عن التدفق طوال الوقت. بقي محدقاً في الشاشة بلا حول ولا قوة وهي تنبض برسالة بالأحرف الكبيرة : «القرص الصلب ممتلئ» . كان يجب القيام بشيٍ حالاً، لكن لم يعرف ماذا.

في الوقت الذي كان الهلع يستولي عليه تماماً، حدث شيء. اختفى التحذير فجأة وظهرت مكانه صورته كما لو ان الشاشة تحولت لمرآة. لكن الانعكاس كان مخادعاً، فصورة السيد بافيك كانت مشوّهة وكأنه يصرخ فيها، لم يكن قد سمع صوت الصراخ لأن الحاسوب القديم لم تكن موصولة به سماعات. لا فرق بكل حال. ذلك ان لا أحد هنا ليسمعه، سوى مقعد فارغ قبالة الشاشة.

(11)

جامع الآمال

سمعتُ الباب يُفتح وخطوات تتوجه نحوي، وبالرغم من اني لم أرَ شيئاً إلا اني التفتُّ نحو من كان يقترب منّي بحيث أصدر عنقي صوت قرقعة. وقف الخاطف على مقربة مني، لم يحدث شيء خلال لحظات، ثم نزع عني غطاء الرأس.

بالرغم من أن الضوء لم يكن قوياً، إلا أني حدقتُ بعينين نصف مغمضتين بعد أن قضيت وقتّاً طويلا في الظلام. نظرت متأملاً ما يحيط بي. لم أعلم أين أنا، لكني كنت لسبب ما اشعر أني في قبو صغير من دون نوافذ او أثاث، كنت أعلم أني أجلس على مقعد، مقيّدة يداي بالأصفاد بالمسند الخشبي. كان هذا الأمر محيّراً بالنسبة لي، راحة كهذه تتعارض مع قبو مطمور كهذا. نظرة واحدة كفيلة بإثبات أن شكوكي كانت خاطئة. المقعد كان وسط قاعة فارغة شاسعة يعلوها سقف عال. كانت هناك رفوف مثبّتة على الجدران الأربعة تحوي مجلّدات كبيرة. كان هناك أمران متعارضان مع هذه الخلفية. كان هناك باب يخترق الجدار الأيسر، بينما تقسّم الجدار المقابل لنصفين نافذة تصل للسقف، مغطاة بستائر أرجوانية ثقيلة.

كانت تعلو رأسي ثريّا غير مضاءة، مصدر النور الوحيد مصباح موضوع على الطاولة أمامي. جنب جرّة ماء، كأس وساعة رملية. وفي الجهة المقابلة كانت هناك مقعد أسود بظهر مقوّس مرتفع. كنت مخطئا بشان أمر آخر، كنت مقتنعاً أن خاطفي كان شاباً يافعاً سميناً. نعم، هو لم يتحدث قط، وعليه لم يؤكد صوته اعتقادي هذا، بدا هذا منطقيا. لكن الرجل الواقف أمامي الآن يبدو أقرب لأستاذ جامعي متقاعد من خاطف شديد الباس. كان رجلاً ستّينياً بشعر رمادي خفيف ذي بنية ضعيفة. كان يرتدي معطفاً طويلا بلون أرجواني يشبه لون الستائر، وتتدلّى من رقبته سلسلة معلّقة فيها نظارة قراءة دائرية العدسات.

«مرحباً» قالها مرفقة بابتسامة.

«مرحباً» أجبته بعد تردد، وانا أشعر بسخافة أن يبدأ حديث بين خاطف ومخطوف بهذا الشكل.

«أعتذر عن هذا الإزعاج، اريدك أن تعلم أن هذا ضروري في الوقت الراهن، أتمنى أن القيود لا تؤذيك كثيراً، بم تشعر؟، هل تحتاج لشيء»؟

ترددتُ مجدداً قبل ان أجيب. «قليلاً من الماء، أشعر بالعطش»

«طبعاً» قال وهو يومئ برأسه.

تحرّك الى حيث الماء الموضوع على الطاولة القريبة وصبَّ لي شيئا منه وقرّبه من فمي، انسكب بعض الماء على ذقني بينما كنت أشرب، أخرج منديلاً بسرعة من جيب معطفه ومسح به وجهي، ثم عاد الى الطاولة وأعاد الكأس، وذهب بعدها الى الجانب الآخر وجلس على المقعد الأسود. اصبح ظهر الكرسي يعلو رأسه، قام بتقليب الساعة الرملية، وبدأ

الرمل بالانسكاب من الجزء العلوي الى السفلي. بقينا ننظر لبعض بصمت للحظات.

«ماذا تريد مني؟»«قلتُ محاولاً كسر الجمود«إن كنت تطمع في المال فأنت اختطفتَ الشخص الخاطئ. لن يدفع لك أحد لتخلي سبيلي».

«لا ابحث عن المال»

«اذا ما الذي تريده»؟

«هناك ما هو أثمن من المال»

«طبعاً، لكنها ليست من اهتمامات الخاطفين»

«هناك اصناف من الخاطفين، دعني اسألك سؤالاً، ما الذي يمكنك دفعه لي مقابل استعادتك لحرّيتك»؟

بالرغم من أنني لم أتعرض للاختطاف يوماً إلا انني لم اتوقع أن تكون المفاوضات بهذه الطريقة.

«لا أعلم، إن كان الامر لا يتعلق بالمال، ما الذي أملكه وتكون طامعاً فيه»؟

«حتماً هناك شيء، وإلا لن تكون هنا، لكن دعنا نعكس السؤال، ما الذي لا يمكنك ان تتنازل عنه مقابل استعادتك حريتك»؟

ركّزت نظري على العجوز، لو لم أكن مقيَّداً بهذه الأصفاد، لاعتقدت ان خوض هذه المحادثة الغريبة في هذا المكان الأشد غرابة أمر مثير.

«لا أعرف، يجب ان افكر بالأمر، هذا ليس سؤالاً سهلاً» أجبته بصدق

«أعرف أنه ليس كذلك، لكن اخشى اننا لا نملك الكثير من الوقت»

قال وهو يشير الى الساعة الرملية أمامي، وكأنه يوضح الامر. كان تيار الرمل الرمادي يتدفق بإطراد.

«أود حقاً ان أساعدك، هل يمكنك ان تتنازل عن الأمل مقابل نيل حريتك»؟

«الأمل؟ أي أمل»؟

«الأمل بشكل عام. حقك في ان تأمل بالحصول على أي شيء في الحياة»

«لا أفهم، كيف لي ان اتنازل عن الامل»

«الأمر سهل، قرِّر فحسب»

فهمت الأمر وقتها، هذا ليس خاطفاً تقليدياً، انه أحد اولئك المجانين المعتنقين للأفكار المختلّة. يمكن للمظاهر أن تكون خدّاعة، الرجل المسن الذي يجلس أمامي هو آخر شخص يمكنني ان أتخيل أنه أحد المختلين. كان يجب أن أكون حذراً جداً، قد يكون مجنوناً، لكنه حتما ليس بأحمق.

«إذاً، يكفي أن اتنازل عن الأمل، لتطلق سراحي»؟ قلت بصوت أقرب للهمس وانا أحاول رفع يدي مما جعل الأصفاد تقرقع.

«هذا صحيح». أجابني وهو يبتسم.

«هل هناك أي شروط أخرى»؟

«لا»

«حسناً إذاً، أنا أتخلى عن آمالي كلها» قلتُ وكأنه تصريح رسمي.

اتَّسعتْ ابتسامة الرجل العجوز: «هذا رائع، يسعدني أن الأمر جرى بسلاسة معك»

انتصب واقفاً ثم وضع الساعة الرملية بشكل أفقي.

«أحياناً يكون الامر مزعجاً» قال وهو يدور حول الطاولة وينتهي إلى الوقوف امامي،«بعض الناس يفضلون الامل على الحرية، يشعرون انه يمكنهم العيش من دون حرية، لكن حتماً ليس بغير أمل»

كنت أشعر بفضول حتى أسأله عما جرى لهم، لكني فطنت إلى أن الأمر لا يعنيني، لكل انسان الحق في اختيار أولوياته، لكن بقي أمر وحيد كنت أحتاج لمعرفته.

«إن لم يكن الأمر سرِّياً، هل يمكنك إخباري عما تحصل عليه عندما يتنازل لك أحدهم عن الأمل»؟

«الأمر ليس بسرّ، أنا جامع الآمال»

كانت إجابته مقتضبة تماماً كما عندما ذكر الساعة الرملية. لماذا يزعج نفسه بتفسير أمر جليّ كهذا؟

«أوه، هكذا إذاً» قلتُ وكأني قبضتُ للتو على حقيقة سهلة.

التقط الرجل الغطاء من ظهر المقعد:» أخشى أنني يجب ان أعيد تغطية رأسك به، التكتُّم أمر ضروري في هذا العمل، أنت تتفهم ذلك أليس كذلك»؟

«بالطبع»أجبته من تحت الغطاء

يمكنك نزعه بعد خمس عشر دقيقة من الآن، ولم تكون حينها مقيّداً،

ستكون حرّاً تماماً من جديد، أرجوك لا تلمني لأي أذى قد تكون تعرّضت له، للأسف لم يكن من الممكن تفاديه»

«علام ألومك؟ لم يكن هناك أي ازعاج مطلقاً، على العكس»

عندما نزعتُ الغطاء عن رأسي بعد انقضاء ربع ساعة، لم يكن التحديق كافياً، اضطررت أن أغلق عينيّ، بسبب سطوع ضوء الشمس. مع هذا، بمجرد أن فتحتهما مرة أخرى، عرفت مباشرة أن أمراً ما ليس طبيعياً. كان من المفترض أن اكون بقمّة سعادتي كوني استعدتُ حريتي دون ان أضطر لدفع أي شيء. لكن كل ما شعرت به لحظتها هو اليأس.

(12)

جامع المجاميع

كان السيد بوكورني جامعاً للمجموعات طوال عمره. لم يكن يملك الوقت أو الصبر لتجميعها معاً، وعليه كان يحصل عليها جاهزة. كان ثرياً لدرجة يمكنه معها دفع الثمن مهما بلغ إن كانت مجموعة تروق له. وبالرغم من ذلك كانت شكوك كثيرة تدور حول كيفية حصوله على بعض من مجموعاته. انتشرت إشاعات عن انه ربما قام بسرقتها عن طريق الابتزاز وأنه لن يتوانى حتى عن القتل في سبيل الحصول على ما يريد. وصل الأمر مرة إلى ان يجرى تحقيق رسمي لمعرفة مصدر هذه المجاميع، لكن لم يتم اثبات أي شيء غير قانوني. كان كتوماً جداً عندما يتعلق الأمر بمجاميعه. لم ينكر يوماً حيازته لها، لكنه لطالما رفض الإدلاء بأية معلومات عنها. كان يمكن أن تبقى بعيدة عن الأعين، لولا وجود الراوي الذي لا يخفى عليه شيء. أو، فلنقل تقريباً لا شيء يخفى عليه كما يبدو.

نظراً لكوني القاص العالم بكل شيء، أول ما أودُّ الكشف عنه هو مكان مجاميع السيد بوكورني. وبالنظر لثروته الهائلة وقيمة هذه المجاميع يتوقع الفرد أن يكون قد احتفظ فيها بغرفة خاصة، ربما بغرفة مصفّحة تحت الأرض مَحميّة بأسلحة الكترونية وحرّاس مدجّجين بالكامل. لكن هذا

التصور أبعد ما يكون عن الواقع، كان السيد بوركوني يحتفظ بالمجامع في غرفة جانبية صغيرة. كانت تُستخدم سابقاً كمخزن للأغراض المستخدمة. تم التخلص منها لاحقاً وتركيب اثنين من الرفوف المعدنية على الحائط. يقابلان بعضهما على يمين الباب ويساره، ويمتدان على طول الجدار من الأسفل الى السقف، ولكل منهما اثنا عشر جزءاً.

كان يمكن الاكتفاء بالإضاءة الطبيعية في الغرفة، لولا أن واحدة من المجاميع كانت بحاجة لضوء أرجواني، ونتيجة لذلك كان هناك مصباح أرجواني عارٍ متدلٍ من سلكٍ طويل. قد يكون أمر مفاجئ أن السيد بوكورني لم يضع حتى قفلاً على باب الغرفة التي تحوي المجاميع، كان يمكن لكل من يستطيع دخول بيته أن يدخل تلك الغرفة من دون عناء. لكن هذا نادراً ما حدث. حتى المالك نفسه قلّما دخل تلك الغرفة. المترددون على المكان بشكل منتظم كانوا الخدم الذين يدخلون الغرفة لتنظيف الغبار كل صباح أربعاء، بالرغم من أن المكان بالكاد احتاج لأي تنظيف.

للوهلة الأولى ستعتقد ان السيد بوكورني وضع المجاميع بشكل عشوائي، هي بالفعل تبدو غير منظّمة، كأنه وضعها بشكل مؤقت إلى أن يجد لها مكاناً مناسباً. لكن هذا محض وهم. كان المالك يعرف تماماً مكان كل مجموعة، مع أنه كان يجد صعوبة في شرح التصنيف الذي اتبعه لترتيبها بهذا الشكل. لحسن الحظ، لم يكن مضطراً يوماً لإجابة أحد عندما يتعلق الأمر بقراراته. مع خطورة محاولة تبسيط أمر معقّد كهذا، وبواسطتي أنا، القاص العالم بكل شيء، يمكنني إخبارك أن الجانب الأيسر كان يحوي المجاميع العائدة للأمور المحسوسة، والجانب الأيمن يختصّ بالمجاميع المتعلّقة بالجوهر.

لا يمكنني طبعاً أن أعطيكم قائمة بالمجاميع، هكذا ستتحول من دون شك هذه القصة إلى دليل، وهذا ليس بأمر ممتع. لكن سيكون من المفيد ان نتطرق للمهم منها، لإضافة بعض الإثارة على القصة. على سبيل المثال، على الجانب الأيسر هناك مجموعة كبيرة من علب السجائر المصنوعة من الفضة تحوي قصاصات أظفار أحدهم. هناك أيضاً دفتر ملاحظات يحوي تواقيع لأناس سيّئي الحظ فارقوا الحياة مباشرة بعد توقيعهم. ثم هنالك ألبوم صور لشخص كان شديد الحماس لالتقاط صور لنفسه جمعت لعقود. عيّنة أخرى مثيرة للاهتمام دفتر ملاحظات يختزن كلمات كان يظن جامعها أنها جميلة بشكل خاص. هناك قصاصات جرائد تحوي مقالات علمية محفوظة في ملفات بلاستيكية، وقرص صلب لحاسوب مملوء ببريد الكتروني مصنّف بشكل منظّم.

بينما الجانب الأيسر كان يمثل الإرباك بكل الأحجام والأشكال، كان الجانب المقابل له موّحداً بشكل ما، وبالرغم من هذا، كان بإمكان أي شخص أن ينجز الكثير لتحسين الترتيب، خاصة فيما يتعلق بالتخلص من الألوان. كان الجانب الأيمن أشبه بالصيدلية، بما انه لم يحو سوى القناني. كانت جميعها مدوّرة ومغلقة بسدّادات زجاجية، وكان الأمر الوحيد الذي يفرق بينها هو اللون، مما أدى إلى تنافر لوني متعدد. لم يكن من الممكن معرفة ما تحويه هذه القناني، لم يعنونها السيد بوكورني او يتبرّع ببيان محتوياتها بأي شكل، لأن هذا لم يكن ضرورياً. كان يعرف جيدا ما تحويه هذه القناني التي جمعها، لو لم أكن هنا، أنا العالم بكل شيء، لبقي الموضوع سرّاً مطلقاً. لكن ها هي فرصتنا لمعرفة شيء ولو بسيط عنه.

القناني الارجوانية الكثيرة التي استلزمتْ وجود ضوء بنفس اللون

عليها كانت تحوي أياماً من ماضي أشخاص من المولعين بالحلويات. ملئت تلك الخضراء الداكنة بأحلام خاصة. والصفراء الزاهية كانت مستودعاً للقصص الأخيرة التي كتبها أصحابها. وبشكل ملائم كانت السوداء تحتضن الموتى، بينما الشفافة التي تبدو عادية كانت تحوي الآمال. من يعلم كم كانت لتتضاعف هذه المجاميع لو سنح للرفوف أن تستقبل المزيد منها إلى ما لا نهاية. على الرغم من انها كانت مجاميع ضخمة، إلا أنها لم تكن من دون حد، ولهذا، بيوم خميس حدث ما لم يكن بالحسبان، دخل السيد بوكورني وهو يحمل مجموعة جديدة لا يوجد لها مكان، حاول أن يجد لها مساحة بتحريك بعض المجاميع القديمة، لكن من دون فائدة. لم تكن هذه مشكلة كبيرة بالطبع، تحديداً ليس لرجل ثري كالسيد بوكورني. كان يملك أكثر من حل تحت تصرفه. أسهلها وضع رفّ جديد على الجدار الثالث المواجه للباب والذي لا يتم استخدامه في الوقت الراهن. إن لم يرق له هذا الحل، يمكنه نقل كل المجاميع لغرفة اكبر من هذه، لديه بالفعل الكثير منها. يمكنه حتى تهيئة منزل بأكمله ليضم هذه المجاميع.

لكنه لم يلجأ لأي من هذه الاحتمالات. عندما لم يجد مكاناً للمجموعة الجديدة، ببساطة وضعها السيد بوكورني على الأرض وخرج من الغرفة. عاد سريعاً ومعه سلّة مصنوعة من الخوص. ما سيأتي لا ينصح بقراءته من ذوي القلوب الضعيفة ومفرطي الحساسية.

وكأنما كانت هذه المجاميع عديمة القيمة، بدأ السيد بوكورني بإلقاء المجاميع الموضوعة على الجانب الأيسر في السلة. كان يرميها دون أن يرف له جفن او ادنى قلق من أن تتضرر، لم تؤثر فيه أصوات الكسر أو

تردعه. عندما ملأ السلة، اخذها إلى الموقد المشتعل في غرفة الرسم الشاسعة. أفرغ محتويات السلة على الأرض وعاد إلى الغرفة الصغيرة. بعد أن ملأ السلة اربع مرات متتالية، جرّ مقعداً جلدياً كبيراً إلى حيث الموقد، جلس قبالته، وبدأ العمل.

استغرق حرق المجاميع الملموسة ساعات، بصبر بقي السيد بوكورني ينتظر أن تحترق كل مجموعة تماماً قبل ان يرمي بمجموعة جديدة لألسنة النار. ما لم يحترق كان يعيده للسلة لتُرمى للقمامة فيما بعد. لم تظهر على تقاسيم وجهه ادنى عاطفة وهو يتأمل النار تلتهم أشياء جمعها أشخاص بحب كبير لسنين، كان يبدو وكأنه يمارس عملاً يومياً روتينياً.

عندما حل دور مجاميع الجانب الأيمن، كان عليه أن يكون حذراً، لم يلقِ القناني في السلة بشكل عشوائي بل وضعها برفق وبشكل مرتب وبحرص على أن لا تتكسر. لم يحضرها للحرق كما الأخرى، بدلاً من ذلك أخذها الى شرفة واسعة تطل على حدائق غنّاء دائمة الخضرة. أحضر خمس سلال مملوءة بالقناني ووضعها جميعها حول أريكة مغطّاة بقماش أرجواني.

كان الغسق قد حلّ عندما جلس على الأريكة وبدأ بفتح القناني، لم يهتم كثيراً بترتيبها وسريعاً غمرته رائحة هي أشبه بخليط من عبق الأزهار. الأيام كانت تحمل رائحة البنفسج. الأحلام كانت برائحة الليلك، القصص تعبق برائحة الورد، الموت بعكس كل التوقعات كان يحمل رائحة الغاردينيا، والأمل.. حمل عبير الزنبق.

كان هناك خليط من عطور أخرى ثقيلة، خفيفة، وبالكاد محسوسة.

بقيت توليفة الروائح تدور حول السيد بوكورني لبعض الوقت، ثم انتشرت في الحدائق ناشرة عبقها اكثر من المعتاد.

بعد أن تم إطلاق سراح عدد لا يستهان به من محتويات القناني، وتم أخذها الى مكب النفايات، يمكننا أن نتساءل عن سبب تصرف السيد بوكورني بهذه الطريقة. هذا السؤال، للأسف، يجب أن يبقى من دون جواب. حتى قاصّكَ البارع الذي يعرف كل شيء لا يمكنه ولوج عقل رجل ثري هوايته جمع المجاميع. قد يكون هذا للأفضل. عموماً، ما فائدة معرفتنا لسبب تدميره لكل تلك المجاميع؟ فهذا لن يعيدهم على أية حال.

الفهرس

(1) جامع الأيام 5
(2) جامع الأظفار 17
(3) جامع التواقيع 23
(4) جامع الصور 31
(5) جامع الأحلام 39
(6) جامع الكلمات 49
(7) جامع القصص 55
(8) جامع القصاصات 63
(9) جامع الوفيّات 69
(10) جامع البريد الالكتروني 75
(11) جامع الآمال 81
(12) جامع المجاميع 87

عمل سيبقى في ذهن قارئه طويلاً، لغرابة موضوعاته، وبراعة صياغته، وقدرته على التقاط ثيمات إنسانية فارقة، ضمن إطار سردي مبتكر يُعيد للقصة القصيرة حضورها المؤثر وهي تواصل ادهاشنا إذ تُطلق خليطاً من " عبق الأزهار، وفتنة الأيام التي تحمل رائحة البنفسج، والأحلام برائحة الليلك، القصص برائحة الورد، الموت، بعكس كلِّ التوقعات، برائحة الغاردينيا، والأمل وهو يحمل عبير الزنبق"، زوران جيكوفيتش، الروائي الصربي، صاحب رواية (المكتبة)، يجترح طريقاً في الكتابة والحياة، يجدّد شعورنا بهما، وينمّي أحاسيسنا بوجود حافل بالدهشة، لكنها دهشة غائبة بانتظار الكاتب الماهر الذي سيُطلقها من جديد.

الغلاف: صدام الجميلي

ISBN 978-1-7732289-6-9
9 781773 228969

المعقدين للنشر و التوزيع
العراق-البصرة-شارع الفراهيدي
Dar.Almuakadeen@gmail.com